كلمة العدد

التراث الشعبي ..
طوق النجاة في طوفان العولمة

بقلم: سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

على الرغم من أن الدراسات الأكاديمية في مجال الأدب الشعبي، والدراسات الخاصة بالتراث وجمع الوثائق، تعتبر دراسات حديثة نسبياً، فإن أحداً لم يكن يتصور أنها ستكون وفي سنوات قلائل إحدى أهم الدراسات المحورية في العالم العربي عامة، وفي منطقة الخليج خاصة . وإذا كانت الثورة الفرنسية قد فجرت في القرن الثامن عشر فكرة الاهتمام بالتراث الشعبي وأخذت بزمام أوروبا في اتجاه الاهتمام بهذا النشاط، فإن قدوم الألفية الثالثة يفجر اليوم قضية التراث الشعبي باعتبارها شاطئ الأمان للقوميات المهدد بطوفان العولمة الوشيك .

لقد بدأ الحديث حول إرهاصات الألفية الثالثة في العالم العربي منذ سنوات قليلة لا يجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة . وانبرى العلماء في كل قطاع يبحثون أبعاد هذه القفزة العملاقة التي يتحفز لها العالم في مختلف مجالات النشاط .

فالألفية الثالثة تأتي ومعها العولمة . والعولمة تقترب على حصان جامح هو ثورة الاتصالات . وعالم السماوات المفتوحة . وإذا نحينا جانباً قضية الأسواق والعملة والسلع والتصدير والاستيراد والإجراءات الحمائية

والشركات متعددة الجنسيات، فإننا نصل وبسرعة إلى التخوف الأكبر الذي حذر منه العلماء والباحثون، ليس في العالم العربي وحده وإنما في كثير من دول العالم، فقد أنذروا - وقد أعذر من أنذر - بأن تيار العولمة الهلامي سوف يسيطر عليه الأقوى، وأنذروا أيضاً بأن الأقوى اليوم هو النظام الأمريكي . وأنذروا بأن ثورة الاتصالات العملاقة التي يعيش العالم اليوم في رحابها والتي تتطور بمعدلات فلكية سوف تكون أسيرة الطراز الأمريكي سلوكاً وأخلاقاً وتفكيراً وعادات وتقاليد . . وأنذروا بأن هذا الشبح القادم سوف يمسخ الهوية القومية، وسوف تنشأ أجيال تأكل الهمبرجر وتلبس الجينز، تفكر وتتصرّف وتحب وتتزوج وتتحدث على الطراز الأمريكي . وأن الخصوصيات التي عاشت عليها شعوب كثيرة وقوميات كثيرة، والتي انحدرت إليها عبر حضارات سابقة، وميزت سلوكها وفكرها، وحكمت تصرفاتها وحفظت تقاليدها ورسخت قيمها ومبادئها، سوف تصبح تاريخاً، وأن الأجيال القادمة، سوف تذوب في محيط العولمة بلا هوية ولا حضارة ولا طاقة على تحديد مسارها أو اختيار مصيرها .

وقال العلماء في العالم العربي، إن أحداً مهما أوتي من قوة، ومهما سن من قوانين أو اتخذ من إجراءات، سوف يكون قادراً على إغلاق السماوات أو منع استخدام أجهزة الاتصال والوصال مع عالم الألفية الجديدة . وقالوا إن الخلاص يتركز في شيء واحد، هو تعميق الانتماء للقيم والأعراف والتقاليد، والتراث والفكر العربي، بالحفاظ عليه وغرسه في جرعات مكثفة ومستمرة في عقل ووجدان الشباب العربي، عبر المدرسة والكتاب والأسرة وكل الأجهزة المعنية والقادرة . أي أنهم بكل بساطة وضعوا الكرة في ملعب التراث الشعبي . ومن هنا أصبحت هذه الدراسات - ودون أن يتوقع أكثر المهتمين بها تفاؤلاً - إحدى الدراسات الهامة والمحورية في العالم العربي عامة وفي الساحة الخليجية خاصة .

والتراث الشعبي حملته لنا كثير من الأوعية . هي الحكاية والمثل والوثائق والأسطورة والأغنية والملابس والفنون والملاحم والعادات والتقاليد

والقيم . وكلها أوعية تناولتها وتناقلتها الأجيال العربية جيلاً بعد جيل . قبل التدوين وبعد التدوين وحتى اليوم . وكانت تُصَبُّ في أذن الصغير منذ خطواته الأولى، وتعرض على ناظريه فيما يراه حوله . ويشب على إيحاءاتها فتشكل فكره ووجدانه منذ سنواته الباكرة، مستمداً منها مجموعة القيم العربية بل والإنسانية العظيمة التي تبلورت في الكرم والشهامة والنجدة والشجاعة والبطولة والفدائية والتضحية وغيرها . وكلنا يعرف أن تناول التراث الشعبي يمر بمراحل ثلاث هي الجمع والتوثيق والحفظ .

فبالنسبة لجمع التراث بالإضافة إلى ما حملته الذاكرة العربية وتناقلته عبر العصور من الملاحم والأساطير والحكايات وغيرها . فإن الجمع يمكن أن نقول تجاوزاً إنه مرَّ بمرحلتين : **المرحلة الأولى** هي الجمع العشوائي، و**الثانية** هي الجمع المنظم .

فأما الجمع العشوائي فإنه يعود بنا إلى ابن خلدون الذي حشد في كتابه الكثير من عادات الشعوب التي زارها بأسلوب وطريقة فذة مازالت حتى اليوم مثار الإعجاب . وفي هذا المجال ذاته، لا يمكن أن ينسى الباحث ما قدمه شهاب الدين محمد الأبشيهي في كتابه المستطرف في كل فن مستظرف فما إن أهل منتصف القرن التاسع عشر حتى بدأت طلائع حركة لجمع التراث مدفوعة بدوافع ذاتية وتركزت في مجرد جمع النصوص وتفسيرها تفسيراً لغوياً دون التوقف لدراستها . ومع مقدم الخمسينات من القرن العشرين بدأت هذه الدراسات تأخذ شكلاً مختلفاً وجاداً وتدخل الجامعات العربية فيما يمكن أن نسميه الاهتمام الأكاديمي .

ومع الحركة النشطة التي شهدتها دول الخليج في ربع القرن الأخير . نشأت وضمن محاولة جادة وهامة ومباركة مراكز الوثائق والدراسات في الخليج والجزيرة العربية . لتنهض هذه المراكز بمهمة عظيمة وجليلة في جمع الوثائق وجمع التراث من كل مكان . وحشد بنية أساسية ضخمة لكل ما يتعلق بهذا المجال وبمباركة مشكورة من قيادات دول الخليج . وبمساهمة ملحوظة في توفير الإمكانات اللازمة انطلقت كتائب الباحثين لجمع الوثائق

. وتسجيل الحكايات من أفواه كبار السن . وتسجيل كل ما يمكن الوصول إليه . وكل ما حفظته لنا السنين . ومن خلال الأمانة العامة لهذه المراكز وعبر خطة للتعاون الأخوي بين الأشقاء . . أخذت هذه الوثائق والموروثات تنتقل من مركز لآخر في حركة نشطة للتبادل والتعاون توفيراً للجهد والمال . حركة الجمع إذن بدأت وتواصلت وهي مستمرة بصورة مُرضية .

ننتقل بعد ذلك للتوثيق . فلاشك أن الرواد الذين اهتموا بجمع التراث منذ البداية اكتفوا أو اهتموا بالتجميع فحسب وتعيين المفردات وبيان أنواع المواقف . أما عملية توثيق ما تم جمعه فلم تواكب النشاط الذي حظيت به عملية الجمع . وبقي الحقيقي مختلطاً بالزائف والغث مختلطاً بالثمين . وإذا كنا نعرف أن التراث الشعبي هو العمود الفقري لأصالة هذه الأمة إلا أننا لا ننكر أن هذا التراث، داخَله الكثير أو أدخل عليه الكثير مما كان يخدم أغراضاً معينة أو أهدافاً بذاتها في فترة ما من تاريخ العرب الممتد . بل إنه استُغِل في بعض الفترات للترويج لفكرة ما أو هدف معين إضافة إلى ما اختلط به أصلاً نتيجة تقادم العهد وعوامل النسيان والجهل وهي كلها أمور يعرفها المتصدون للعمل في هذا السبيل .

وكل ذلك يدفعنا وبشدة إلى التركيز على عملية التوثيق :

أولاً : لأن المستشرقين الذين تناولوا ويتناولون الكتابة عن المنطقة العربية، لا يستطيعون مهما أوتوا من علم أن يتوغلوا إلى أعماق الموروث العربي أو الخليجي . ذلك لأنه يحتاج في فهمه لا إلى القواعد العلمية فقط . وإنما يحتاج إلى توافر الحس العربي والذوق العربي والمعايشة الكاملة حتى يمكن الإحاطة بكل مدلولاته ورموزه .

وثانياً : لأننا إذا كنا بصدد استخدامه في ترسيخ الأصالة في نفوس الأجيال القادمة فلابد أن يكون ما نقدمه لهم هو الحقيقي دون الزائف، والسليم دون المشبوه .

نحن نعرف أن عملية التوثيق ليست بالعمل السهل بل إنني أكاد أقول إنه لا يعرف مدى صعوبة هذا العمل إلا من كابده ويكابده فهو يحتاج في

البداية إلى إعداد الباحث نفسه . القادر على التصدي لهذا العمل الكبير وإعداد هذا الباحث في حد ذاته ليس بالأمر السهل . إذ يجب أن يتوفر على دراسة الفترة الزمنية التي يعالج وثائقها دراسة شاملة تاريخياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وأدبياً وفنياً حتى يكون على علم تام بالمادة التي بين يديه، وحتى يستطيع أن يدرك ما بها من حقيقة وما بها من زيف . نحن إذن في حاجة إلى إعداد الباحث قبل إعداد المنهج . ثم إلى إعادة فرز وتمحيص وتوثيق ما تم جمعه وهو كثير . وقد يكون اللجوء إلى مجموعات البحث منهجاً أكثر فاعلية فيلتقي على مائدة واحدة الباحثون في مختلف التخصصات لمطالعة النص الواحد من جميع الزوايا . فالعمل الجماعي في هذا الصدد أكثر فائدة وأفضل نتيجة .

يأتي بعد ذلك تبادل النتائج ومقارنتها ويمكن أن يتم ذلك عبر شبكة مراكز الوثائق وهي بحمد الله تغطي اليوم الساحة الخليجية كلها . ولا يمكننا في هذا المجال أن نغفل أهمية الدراسات ، فمنذ أن بدأ جمع الوثائق ونحن ندعو إلى ضرورة تنشيط حركة البحث . فالباحث الذي يتناول موضوعاً معيناً، أو فترة زمنية معينة سوف يعالج معطياتها معالجة علمية فإذا أعدت أكثر من دراسة عن الموضوع الواحد لأكثر من باحث، كانت أمامنا حصيلة هامة لأكثر من جهد حول الموضوع الواحد . أنا أعلم أن هناك جهوداً تبذل على هذا الدرب . ولكنني أتكلم هنا عن موجة عامة أو اتجاه عام . أرجو أن يأخذ به الجميع . فليس أمامنا وقت طويل والسباق هنا هو سباق مصير .

فإذا انتقلنا إلى الحفظ فلاشك أن القفزة التكنولوجية الهائلة التي يقدمها لنا العصر سوف تفيد إلى حد كبير في حفظ ما يتم توثيقه وتمحيصه . فالكمبيوتر واسطوانات الليزر وغيرها سوف تساعد إلى حد كبير في حفظ هذا التراث وفي سهولة تبادله وتقديمه والاستفادة منه إذا ما تم تبويبه تبويباً علمياً وفهرسته فهرسة سليمة . ومن هنا فلابد أن تواكب مراكز

البحث في المنطقة كلها أحدث معطيات العصر وأحدث منتجات الثورة التكنولوجية التي هي لغة العصر .

وهنا نواجه بسؤال يطرح نفسه . هذا السؤال هو : ماذا بعد الجمع والتوثيق والحفظ ؟

إن أي جهد جبار يبذل في سبيل الجمع والتوثيق والحفظ سيظل جهداً ضائعاً إذا لم نحدد من الآن كيفية الاستفادة منه . لقد قلت من قبل أن الجميع وضعوا الكرة في ملعب الباحثين في التراث الشعبي، وقلت إن الأصالة والارتباط بهذه الأصالة هي طوق النجاة الوحيد لمواجهة طوفان العولمة القادم .

وأقول إن هناك جهداً كبيراً مطروحاً أمام كل الباحثين في مختلف مجالات النشاط الإنساني . هذا الجهد هو ضرورة الاعتماد على تراثنا فيما يتصدون له . وأن يكون هو المنطلق والأرضية والأساس الذي يشيدون عليه عطاءهم في مختلف مناحي الحياة .

وأنا هنا أدعو أن تكون معطيات الأصالة العربية نغمة بارزة في الكتاب المدرسي وأن تكون المادة الخام التي تصاغ منها إبداعات الفن العربي والثقافة العربية .

إنني أدعو أن تتحول مراكز الوثائق والدراسات بالموروث الموثق الذي تحتوي عليه إلى نبع يلتقي حوله الباحثون في مختلف المجالات ليقوم عطاؤهم على أساس مما شاده الأجداد وهو عظيم . أدعو أن تكون الأصالة زاداً ورداءً وسلوكاً وفكراً لكل أجيالنا الشابة ولكل أجيالنا القادمة فذلك هو الحصن الذي يمكن أن يحفظ لنا هويتنا ويحفظ لنا حضارتها ويحمينا ويحمي مستقبلنا من الطوفان القادم . والله ولي التوفيق .

عبد الله بن خالد آل خليفة

أوائل تجدّد



مصير القرامطة

بقلم الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

جزر البحرين أو أرخبيل البحرين، هذه الجزر الصغيرة الحجم الكبيرة بموقعها وواقعها وتاريخها وشعبها عاصرت الحضارات فكانت رائدة في هذه الحضارات . قدسها الأوائل فنقلوا رفات موتاهم إليها لتدفن في أرض دلمون أرض الخلود التي حباها الله بالنعم ففي هذه الجزر لم يحس سكانها بالمجاعات التي كانت تجتاح البلدان من حولها فخيراتها متوافرة في برها وبحرها وطيبة شعبها لا تحتاج من الإنسان إلا أن يتحرك ليجد ما يسد به رمقه ويشبع به جوعه، وإذا ما رأينا هذه الجزر في القرون المتأخرة وقد أخذت اسم البحرين عن سائر المنطقة فإني أعتبر ذلك تكريماً لها تستحقه .

فهي منذ فجر التاريخ مصدر إشعاع وملتقى حضارات تستقبلها وتبلورها وتصدر النافع منها لأمها جزيرة العرب كما كانت تستقبل البضائع الواردة إليها من بقاع الأرض وتصدرها عن طريق مينائي القطيف والعقير وعندما أشع نور الإسلام وتكونت مبادئ الدولة الإسلامية في المدينة المنورة وبعث الرسول الأعظم محمد ﷺ برسائله إلى الملوك والرؤساء وجاءت رسالة الرسول إلى أمير البحرين المنذر بن ساوئ التميمي يدعوه وشعب البحرين للدخول في الإسلام لبى شعب البحرين نداء الرسول مختاراً ودخل في الإسلام وكان أكبر دعم مادي أتى إلى المدينة ليسند الدعوة الناشئة هو ما ورد من إقليم البحرين . وثاني مسجد بني في الإسلام كان في إقليم البحرين وبقيت البحرين وفية لإسلامها ولعروبتها تابعة للخلافة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية ونظراً لبعد إقليم البحرين عن دار الخلافة كان ملجأ لظهور بعض الثورات من الخوارج والزنج، وفي عام ٢٧٨هـ بدأ ظهور أمر القرامطة .

ذكر ابن الأثير أن ابتداء أمر القرامطة كان في سنة ٢٧٨هـ على يد رجل قدم من ناحية خوزستان بموضع يقال له النهر بسواد الكوفة وكان يظهر الزهد والتقشف، يسف الخوص ويأكل من كسب يده ويكثر الصلاة والزهد في الدنيا وخدمته الصدف في بعض الحوادث التي مرت به مما ظن الناس أنها كرامات لهذا الزاهد العابد فافتتن الناس به ودعا أهل تلك النواحي إلى مذهبه فأجابوه وكان يأخذ من الرجل إذا أجابه ديناراً ويزعم أنه للإمام وعين من أتباعه اثني عشر رجلاً أسماهم النقباء وقال أنتم كحواريي عيسى بن مريم . وهكذا انتشر أمرهم وسموا بالقرامطة نسبة لاسمه أقريمط وخفف الصلاة إلى ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعد غروبها وأحدث بدعاً كثيرة .

أما في البحرين فقد أعلن أبو سعيد الجنابي دعوة القرامطة سنة ٢٨٧هـ وتمكن من السيطرة على الاحساء والقطيف . وكانت هذه الدعوة من أشد حركات المعارضة للدولة العباسية وكانت من الأسباب الرئيسية في

إضعاف الدولة العباسية وظلت فترة طويلة من الزمن تؤثر في سير الأحداث في الدولة العباسية .

لقد تأسست هذه الحركة كدعوة تابعة للإسماعيلية ولكنها تحولت لتشن الحرب على الإسماعيليين والعباسيين والفاطميين ورفع زعماؤهم شعار العدالة الاجتماعية وبناء المجتمع المثالي ولكنهم تحولوا إلى ممارسة الإرهاب والتقتيل والحكم بالحديد والنار، وبدأ علماء القرامطة بالاعتماد على العقل والمنطق ولكنهم انتهوا إلى الإغراق في الخرافات والتنجيم وعبادة الفرد .

ومما يروى عنهم أن زعيم حركتهم في البحرين أبو سعيد الحسن الجنابي أوصى جماعته قبل وفاته إنه سيموت ولكنه سيبعث، وعندما يبعث بعد الموت سيقول لهم أنا أبو سعيد وحتى يتحققوا من ذلك يضربون عنقه بالسيف فإن كان هو فسيقوم ثانية بعد قتله وعند ذلك يتأكدون بأنه هو، أما إذا كان المدعي غيره فإنه بعد قتله لن يقوم ثانية .

هذه الحركة القرمطية استمرت ما يقرب من قرنين وعاصرت ١٢ خليفة من خلفاء بني العباس واحتلت مكة وقتلت الحجاج في الحرم ونقلت الحجر الأسود من الكعبة إلى الخط . وبداية من عام ٣٦٦هـ الموافق ٩٧٦م أخذ أمر القرامطة في التناقص وفي حوادث عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م مني القرامطة بعدة هزائم حتى وصلت هزائمهم إلى القطيف والاحساء، مما أطمع فيهم قبائل البحرين .

وفي جزر البحرين تحدد مصير القرامطة على يد شخص من قبيلة عبد القيس يسمى العوام بن محمد بن يوسف الزجاج[1] ويلقب بالزجاج وكذلك يلقب أبو البهلول وعلى ما أعتقد فإن هذا اللقب الأخير لقبه به أعداؤه بعد أن تغلبوا عليه .

كيف استطاع العوام أن يطيح بالقرامطة في البحرين؟

من أهم المصادر التي سنعتمد عليها في بحثنا هذا مصدران، الأول رسالته المطولة والتي بعث بها إلى الشيخ الأجل والثاني ما كتب على ديوان الشاعر ابن المقرب من شروح نشرتها مجلة العرب لصاحبها المؤرخ الكبير حمد الجاسر ونشرناها في كتابنا "البحرين عبر التاريخ" في الجزء الثاني ولنبدأ بتحليل الرسالة التي كتبت في خلافة الخليفة القائم بأمر الله العباسي وهو أبو جعفر عبد الله بن القادر . تولى الخلافة سنة ٤٢٢هـ إلى ٤٦٧هـ/١٠٣١م إلى ١٠٧٥م وقد طالت مدة القائم حوالي ٤٦ سنة وأقرب تاريخ لكتابة هذه الرسالة حوالي العقد الخامس من القرن الخامس الهجري . ونستنتج ذلك من أن الرسالة كتبت باسم الشيخ الأجل، ولم يلقب بالشيخ الأجل سوى رجل واحد هو أبو منصور[١] عبد الملك بن محمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٦٠هـ الموافق ١٠٦٧م، إذن الرسالة كانت قبل وفاته . وقد بدأ العوام رسالته بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله تعالى بقاء الشيخ الأجل الأوحد وأدام تمكينه ورفعته وعلوه وقدرته وبسطته وحرس أيامه ونعمته وكبت عدوه وخذل حسدته .

[من المستقر بجزيرة أوال لسبع بقين من ذي القعدة – ولم يذكر السنة]

وبمراجعتنا للرسالة يقول كاتبها أن دولة القرامطة التي أسسها أبو سعيد الجنابي دامت ١٧١ (مائة وإحدى وسبعين سنة) فإذا كانت بداية تأسيس هذه الدولة عام ٢٨٧هـ فعندما نضيف (عام التأسيس)٢٨٧ + (مدة بقائها) ١٧١ = ٤٥٨ . إذن نحدد سنة ٤٥٨هـ تاريخاً لكتابة الرسالة فنقول كتبت الرسالة في

٢٣ ذو القعدة عام ٤٥٨هـ الموافق ١٤ أكتوبر ١٠٦٦م تقريباً .

أما المصدر الثاني وهي الشروح التي كتبت على بعض النسخ الخطية لديوان الشاعر بن المقرب العيوني فتحدثنا هذه الشروح أن العوام بن محمد كان ضامناً لخراج أوال من والي القرامطة وكان له أخ يقال له مسلم يكنى بأبي الوليد وهو رجل متدين محافظ على السنن ويحاول أن يبني مسجداً لأن القرامطة هدموا جميع المساجد في إقليم البحرين بما فيها أوال ويلح على أخيه في بناء مسجد لإقامة الصلاة وخاصة صلاة الجمعة وكان الوالي على أوال من قبل القرامطة رجل يدعى جعفر بن محمد بن عرهم تربطه بالعوام وأخيه صداقة فطلب منه الإذن ببناء مسجد جامع ليجتمع إليه العجم والمسافرون إليهم وخاصة التجار والحجاج لأنهم لا يأتون عن طريق أوال بسبب أن القرامطة هدموا جميع المساجد التي كانت فيها وأن إقامة المسجد سيشجع العجم والحجاج والتجار على المجيء إلى البحرين ويضاعف لسكان البلاد التجارة وتبادل المنافع وتزداد الرسوم التي يجنونها من التجار لصالح الدولة وأنهم سيدفعون للدولة مقابل الرخصة لبناء المسجد ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف دينار) وأن عدم بناء المسجد قد ينفر العجم وعند انقطاع التجار ستقل موارد الجباية والرسوم فاقتنع ابن عرهم برأيهم وكتب للقرامطة يستأذنهم فيما عرضوا عليه فجاءه الجواب أن يتسلم المبلغ ويسمح لهم ببناء المسجد . وبالفعل دُفع له المبلغ وبدأوا في بناء المسجد وهنا يتبادر إلى الذهن سؤالان : أين كان مكان سكناهم ؟ وأين بنوا المسجد ؟ .

أما سكناهم فكانت في بلاد القديم وبجنب سوق الخميس . وأما المسجد فهو المسجد الذي بناه عمر بن عبد العزيز والذي هدمه القرامطة وأعاد العوام بن محمد الزجاج وأخوه مسلم بناءه وهو المسجد ذو المنارتين في الخميس والذي لم يبق منه في الوقت الحاضر سوى المنارتين .

وعندما تم بناء المسجد الذي نقدر تقريباً أن اكتمال بنائه كان حوالي عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م . وتولى الإمامة فيه أبو الوليد مسلم بن محمد بن يوسف الزجاج أخو العوام . وفي يوم الجمعة، صعد

المنبر وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله فقال المؤيدون للقرامطة هذه بدعة قد أحدثها بنو الزجاج بالمكر والخداع ويجب أن يمنعوا من الخطبة ولا يمكنوا من صلاة الجماعة . فلما خوطب آل الزجاج في ذلك قالوا ما بذلنا وسلمنا أموالنا إلا لهذا الأمر ولأجل هذا الدين قصداً ولاستجلاب العجم إلينا وترغيبهم في معاملتنا ، فإن كرهتموه ردوا علينا ما أخذتم من مال ونحن نمتنع عما قصدناه وإن كان ذلك يضر بمصلحتنا ومصلحة البلاد . فكتبوا للقرامطة بواقع الحال فأجابوا بأن لا يعترضوا في مذهبهم ولا يمنعوا عن خطبتهم فجروا على سنتهم . ومن جراء ذلك ازدهرت التجارة ونمت الأسواق ودر عليهم ذلك فوائد كثيرة وأيدهم في ذلك أكثر النواحي لتأييدهم إظهار شعائر الإسلام التي أوقفها القرامطة ولما قامت ثورة البساسيري في بغداد في ٦ ذو القعدة سنة ٤٥٠هـ الموافق نوفمبر ١٠٥٨م وخلع الخليفة القائم بأمر الله وأخرجه من بغداد ونهبت بغداد وقصور الخلافة ودخل البساسيري بغداد في يوم الأحد الثامن من ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ، حاملاً الرايات البيضاء شعار الفاطميين وقد كتب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين، اعترض المخالفون لبني الزجاج عليهم ومنعوهم من الخطبة يوم الجمعة وقالوا إن الخليفة الذي كنتم تخطبون له قد عُزل وصارت الخطبة في مساجد العراق للمستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر ويجب أن تكون الخطبة هنا باسمه لأن الخليفة العباسي الذي كنتم تخطبون باسمه قد عُزل فتوقف الإمام عن الخطبة وأرسل بنو الزجاج هدية إلى القرامطة وذكروا ما أصابهم من تدخل المخالفين وإيقافهم عن الخطبة وطلبوا إبقاءهم على عادتهم القديمة بدون تغيير فجاء الجواب بأن لا يغيروا لبني الزجاج ما هم سائرون عليه وليخطب أبو الوليد بن الزجاج لمن شاء وأحب . ولم تدم فتنة البساسيري إلا سنة واحدة ودخل الخليفة القائم بأمر الله بغداد منتصراً على أعدائه بمساعدة السلطان طغرل بك السلجوقي في يوم الاثنين ٢٥ ذو القعدة ٤٥١ هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٠٥٩م وانتهت فتنة البساسيري . وكان جعفر بن محمد بن عرهم على وفاق مع العوام

وأخيه ابني الزجاج ورسائله إلى القرامطة في القطيف والاحساء مليئة بمدح آل الزجاج وحسن سيرتهم والعوام بن محمد يزداد قوة في ماله ومقامه .

مما دفع القرامطة أن يكتبوا لممثلهم في أوال ابن عرهم أن يزيد الأقساط التي يدفعها أهل البلد ويحمل ذلك إليهم ولحسن الصلة التي تربط بين ابن عرهم وأهل البلد وطيب سيرته معهم استدعى العوام وكبار أهل البلد وأخبرهم بما ورد إليه ونصحهم بالنفور منه وعدم الرضى وامتنعوا أن يدفعوا ما طلبه منهم وكتب إلى القرامطة بأن القوم رفضوا ما طلبه منهم ونفروا منه وأنه لا يمكنه مخاشنتهم فكف عنهم وقال والأمر إليكم في ذلك فغاظهم فعلهم وفعله فعزلوه وعينوا شخصاً آخر بدلاً منه وأمروه بالقبض على كل من لديه مال ومصادرة أموالهم عقاباً على ما أقدموا عليه من عصيان أوامرهم .

فجمع العوام أهله وعشيرته وأقاربه ومن وثق به وأنس إليه من متقدمي البلد وعرفهم ما ورد في معناهم، فلما عرفوا ذلك خافوا فعاهدهم على أن يسمعوا له ويطيعوا وقال لهم لا يتم لنا الأمر إلا بأبي القاسم بن أبي العريان فقالوا له افعل ما ترى فقد رددنا أمرنا إليك فقام بهم إليه وحكى له مثل ما حكى لهم وقال هؤلاء القوم قد حضروا وسمعوا لي وأطاعوا وأنا لا أصلح لذلك إلا أن تدخل فيه معي وتكون يدي ويدك فإن فعلت تعاضدنا وتساعدنا وحمينا أنفسنا وأموالنا .

هذا وقد بنوا القول على أن لا يطيعوا القرامطة إلا بعد إعادة ابن عرهم وأن يحفظوا أنفسهم من الناظر الذي عُين مكانه فحالفهم ابن أبي العريان على ذلك وأخذ هو والعوام في استدعاء متقدمي الضياع والسواد وإظهارهم على ما فعلاه وإدخالهم فيما اعتزما عليه فما منهم مخالف لهما ولا ممتنع عليهما إيثاراً لعودة ابن عرهم وإبعاد من يتولى مكانه وقال لهم الخراج موقوف على أربابه وغير مأخوذ، فإن رجع ابن عرهم دفع إليه وإلا فليفر كل منكم بما عليه . فسروا بهذا وكان أكبر الأسباب في اتساق الأمر . وحصل معهم نحو ثلاثين ألف رجل . وعلم الوالي الجديد فاهتم من ذلك فجمع إليه من يتعلق به واعتزم على أن يقبض على ابن أبي العريان

ثم أخذ ما أخذه ولده المعروف بأبي طاهر وقصد مقصده، وبلغ من الكفر غايته وأمده، فسار إلى البلاد وأوسع فيها غاية العبث والعناد حتى هجم على بيت الله الحرام، وقتل به سائر المجاورين ومن يتسمى بالإسلام، وسلب الكعبة نفيس ما عليها واستخرج منها ذخائرها التي كانت تجمعها وتحويها واقتلع الحجر الأسود مجاهراً بالكفر والعناد وأراد أن ينصبه في كعبة بناها لنفسه في جانب القطيف المعروف بأرض الخط .

وكانت الأيام تنطوي وتمضي والسنون تندرج وتنقضي، والقرمطي في قوة من مملكته، وشدة من سلطنته متمكناً من أغراضه وطلبته، نحو مائة وأربعين سنة، منذ ملك هذه الجزيرة بفرعنته آمناً في ذلك كله من مقاوم يزاحمه ومضاد يضادده، وكلما رأى رأساً ذا حال، وجاه ومال يتوسم فيه إمارة الشهامة، ويدل على سمته الصرامة والزعامة قتله، وبالهلاك بادره وعاجله، حتى لان حبل دولتهم واضطرب، ووهى ركن مملكتهم، وكثرت منهم الأطماع في الأرواح والأموال، واستصفاء الأملاك والأحوال .

وكنت أرصد الوقت الذي جاء حينه أغمز قناتهم، وأقرع عند أوانه صفاتهم فنهضت متعصباً للدولة العباسية، والدعوة الهاشمية، أدامها الله ما دام الديموم، وازدهرت النجوم منتصراً لدين الله تعالى، ومعيداً ما طمس من شرعة رسول الله ﷺ .

وبعد أن تمكن العوام من هزيمة القرامطة وطردهم من أوال حاصر ميناء العقير وهاجمه ودمره ثم حاصر القطيف وذكر في رسالته للشيخ الأجل أنه لولا أن ابن سنبر يستعين بالبادية وبخيلهم التي كانت تحمي القطيف لاحتل القطيف وهو يذكر أنه لو كان لديه مال لدفع للبادية ما يجعلهم ينحازون إليه ويتركون ابن سنبر والقرامطة ويطلب مساعدة الدولة العباسية، هذه الانتصارات شجعت يحيى بن العياش أن يثور عليهم في القطيف وتمكن من التغلب عليهم وسيطر على القطيف وجرت بينه وبين العوام بن محمد الزجاج حروب كل منهما يريد السيطرة على بلاد الآخر ولم يتمكن يحيى من

السيطرة على أوال، وبعد موته تولى القطيف ابنه زكريا بن يحيى بن العياش فتغلب على العوام وقضى عليه ولقب العوام بأبي البهلول وهكذا كانت أوال هي البادئة بدحر القرامطة والقضاء عليهم بقيادة العوام بن محمد الزجاج ولكن الحظ لم يحالفه لكي يجني ثمار جرأته وشجاعته إلا فترة بسيطة فقد انتصر عام ٤٥٨هـ وتغلب عليه زكريا بن يحيى بن العياش حوالي عام ٤٦٤هـ أي أن حكمه لم يزد على ست سنوات .

ولما تغلب زكريا بن يحيى بن العياش على القطيف والبحرين طمع في احتلال الاحساء فأرسل رسلاً إلى الخليفة القائم بأمر الله وجلال الدولة ملك شاه السلجوقي يطلب المساعدة على حرب القرامطة في الاحساء والقضاء عليهم فأرسل له قوة بقيادة أحد حجاب السلطان ملكشاه السلجوقي ويدعى كجكينا وفي طريق هذا الجيش إلى القطيف اعترضته بعض القبائل ونشب بينهم وبينه قتال كان النصر فيه لجيشه ولما وصل إلى القطيف ارتاب فيه ابن العياش ورفض مقابلته وقال لرسله الذين توسطوا في جلب هذا الجيش : *" أنا لا أستطيع مقابلة هذا القائد كجكينا وهو بهذه القوة خوفاً من غدره بي وأنا طلبت مساعدة محدودة بأربعمائة رجل وتشترك مع جيشي وتحت قيادتي، أما أن يأتيني بجيش بهذا العدد وتحت قيادة شخص غيري فلا"* .

ونشب قتال بين ابن العياش وجيش كجكينا الذي كان يتألف من القبائل العربية واستطاع ابن العياش أن يستميل بعض القبائل الموجودة في الجيش إلى جانبه فانهزم جيش كجكينا ورجع كجكينا وبقية أصحابه إلى البصرة في أسوأ حال .

إن الانتصارات التي تحققت على يد ابن البهلول في البحرين ثم ما قام به ابن العياش في القطيف من طرد القرامطة ثم القضاء على آل الزجاج والاستيلاء على القطيف والبحرين شجعت عبد الله بن علي العيوني رئيس قبيلة عبد القيس في الاحساء على أن يثور على القرامطة ويرسل رسله إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان جلال الدولة ملك شاه السلجوقي والوزير نظام الدولة يطلب المساعدة على حرب القرامطة فأمدوه

بجيش قوامه سبعة آلاف بقيادة (أكسك سلار) التركماني وتوجه القائد بجيشه ماراً بالبصرة ثم القطيف وقرر احتلالها من ابن العياش ليثأر لكجكينا وحفظاً لخطوط مواصلاته فاحتل القطيف وانهزم ابن العياش إلى البحرين ثم واصل القائد التركي تقدمه إلى الاحساء، واشترك مع جيش عبد الله بن علي في حروبه ضد القرامطة وفي خبر يطول تمكن عبد الله بن علي من القضاء على القرامطة في الاحساء ورجع أكسك سلار إلى بغداد، وبعد رجوعه استعاد ابن العياش القطيف وطرد الولاة الذين عينهم (أكسك سلار) وباحتلاله للبحرين والقطيف منّته نفسه أن يهاجم الاحساء، ويطرد عبد الله بن علي العيوني منها ويحكم إقليم البحرين بأقسامه الثلاثة، وهكذا زحف بجيشه على الاحساء ووصل إلى مكان يقال له ناظرة قريباً من قرية المقدام فالتقى بجيش عبد الله بن علي العيوني ودارت معركة انتهت بهزيمة ابن العياش وطارده عبد الله بن علي إلى القطيف واحتل القطيف وفر زكريا ابن العياش إلى أوال البحرين فأمر عبد الله بن علي ابنه الفضل أن يقود قسماً من جيشه

وأعد لهم السفن وعبرت القوة إلى أوال ودارت بين الجيشين معركة قتل فيها العكروت وزير ابن العياش الذي فر إلى العجير ومن هناك اتصل ببعض أنصاره من القبائل البدوية الموالية له وجمع جيشاً منهم هاجم به القطيف فالتقى به عبد الله بن علي العيوني ودارت بينهم معركة قتل فيها ابن العياش وانهزم جيشه وفي ذلك يقول الشاعر ابن المقرب :

أتىٰ مغيراً فوافى جو ناظرة
فعاين الموت منا دون ما زعما
فراح يطرد طرد الوحش ليس يرى
حبل السلامة إلا السوط والقدما
فانصاع نحو أوال يبتغي عصماً
إذ لم يجد في نواحي الخط معتصما
فأقحم البحر منا خلفه ملك
مازال مذ كان للأهوال مقتحما
فحاز ملك أوال بعد ما ترك الـ
عكروت بالسيف للبوغاء ملتزما
وصار ملك ابن عياش وملك أبي البـ
ـهلول مع ملكنا عِقداً لنا نظما

بعد أن تمت لعبد الله بن علي السيطرة على أطراف البحرين الثلاثة، الاحساء والقطيف وأوال، ولى ابنه الفضل - الذي احتل البحرين وقتل العكروت - على القطيف والبحرين . والفضل هو الذي أمر بترميم المسجد المعروف في الخميس وكتب عليه اسمه وانتهى القرامطة من إقليم البحرين بأسره وأبطل عبد الله بن علي الكثير من عاداتهم السيئة .

الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

الهوامش

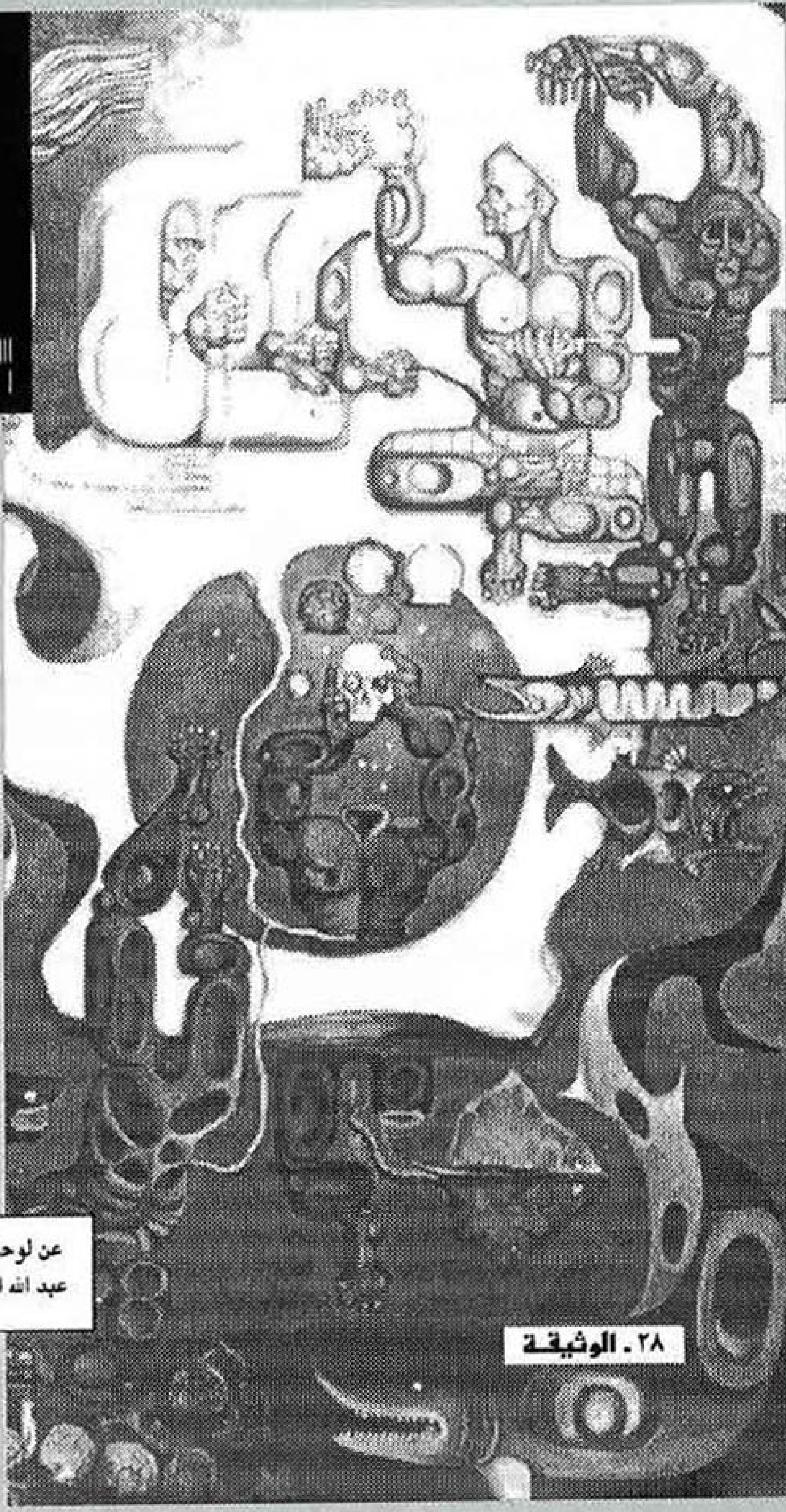
١ - اسم العوام اسم شائع عرف به عدة أشخاص منهم والد الزبير بن العوام أحد المبشرين بالجنة وابن عم الرسول ﷺ .

٢ - أنظر عن الشيخ الأجل :

الكامل في تاريخ حوادث سنة (٤٦٠) .

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي (٤٨٦) .

البداية والنهاية لابن كثير . ص ٩٧ الجزء الثاني عشر، وفاته سنة (٤٦٠) .



عن لوحة للفنان
عبد الله المحرقي

اللآلئ في اللسان العربي

بقلم : الدكتور محمد السيد علي بلاسي

اللؤلؤ في القرآن وفي روائع البيان

تمهيد

يعرَّف اللؤلؤ بأنه : "مادة تفرزها بعض الرخويات المعروفة بقدرتها على إفراز مادة الصدف، أو ما يسمى بعرق اللؤلؤ" .

ويتركب اللؤلؤ من طبقات رقيقة من كربونات الكالسيوم بشكل أراجونيت (٩٠٪) مع نسب متساوية من الماء ومواد عضوية أخرى هي الكونشولين "Conchiolin" (١) .

"وينتج اللؤلؤ الثمين وعرق اللؤلؤ القيم من حيوانات بحرية ونهرية ثنائية المصراع، جسمها محمي بصدفتين تنفتحان وتنغلقان بمفصل قوي من جهة واحدة . ويتألف الغطاء الخارجي للمحارة من مادة الكونشولين(٢) وهي مادة قرنية أما السطح الداخلي للمحارة فيتألف من كربونات الكالسيوم، وهي إما كالسيت أو أراجونيت في هيئة منشورات

عمودية، يليها طبقة يطلق عليها أم اللؤلؤ "Mother of Pearls" وهي حبيبات دقيقة من كربونات الكالسيوم لها بريق لؤلؤي يميز السطح الداخلي للمحارة، ويتكون نتيجة للتداخل الضوئي في رقائق هذا السطح"[٣].

"ولعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار، فهو يهبط إلى الأعماق، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد، عجيبة النسج، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها. وتحت الشبكة أفواه الحيوان، ولكل فم أربع شفاه. فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة حصى، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة!

وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة!"[٤].

هذا؛ ويتخذ اللؤلؤ ألواناً متعددة، أشهرها وأعلاها قيمة: الأبيض والوردي، وتوجد بعض اللآلئ السوداء إلا أنها نادرة[٥].

اللؤلؤ في اللغة[٦]:

في المعجم العربي الأساسي: لؤلؤ: واحدته لؤلؤة، والجمع لآلئ: دُرٌّ يتكون من الأصداف، وهو كروي صلب لماع[٧].

هذا، واشتقاق اللؤلؤ: من تلألأ الضوء، لأن ضوءه يتلألأ. قيل بل اشتق التلألؤ منه يقال: تلألأ وجه فلان أي لمع لمعان اللؤلؤ[٨].

يقول السمين الحلبي مضيفاً: والجمع لآلٍ، والأصل لآلئ ثم أبدلت الهمزة الأخيرة ياءً تخفيفاً ثم أُعِلّ إعلال قاض، فيقال: هذه لآلٍ، ومررت بلآلٍ، ورأيتُ لآلياً، وهذا البدل غير لازم فيجوز أن يُلفظ بالأصل. والنسبة إليه لؤلؤيٌّ.

وقالوا رجلٌ لآل بمعنى النسب نحو ثمار ولبان وليس لنا همزة مدغمة في مثلها من كلمة غير هذا وغير سأل من سآل[٩].

أقول: وفي اللسان العربي أسماء عديدة للآلئ مثل: التوم،

والجمانة، والخريدة، والدرة، والفريدة . . .، حاولنا جمع ما استطعنا جمعه منها - من بطون المعاجم اللغوية -، وأفردنا لها - فيما بعد - معجما بعنوان :

[معجم اللآلئ في اللسان العربي]

اللؤلؤ في القرآن الكريم :

هناك في كتاب الله العزيز ظاهرة فريدة، طالما استوقفت ذوي الفكر والنظر، وحفزتهم للتأمل والاعتبار، وهي اهتمامه بسنن الله الكونية، في غير ما آية من كتاب الله، وتركيزه على نواميس الوجود وأسراره، أكثر من ذكره للأحكام الدينية، والتشريعات الدنيوية، إذ نجده في غير ما آية ينبه المؤمنين إلى ما في هذا الكون الرحيب من عجائب وغرائب، ويلفت أنظارهم إلى مخلوقات الله في السماوات والأرض .

﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾[10] .

وكلها تدل على آلاء الله ونعمه على مخلوقاته، وهي لا تحصى ولا تعد، ولا تستقصى ولا تحد[11] .

وإذا كانت عناية كتاب الله، بالطبيعة من أجل تحقيق أهدافه الكبرى فائقة هادفة ومؤثرة ؛ فهي تتسم بالأهداف النبيلة التي توخاها الكتاب العزيز، وهي أهداف تتصل عن كثب بقضية الإنسان وتكوينه الفكري والأخلاقي والنفسي، وهو يقطع شوطه في هذه الحياة، ويستعد لاستقبال مصيره في الحياة الأخرى . . .

وقد كانت آيات الطبيعة التي تربو على السبعمائة آية محققة لهذه الأغراض المهمة التي جاء من أجلها كتاب الله الذي كان محوراً لتصحيح فكري على نطاق واسع، وذلك حين حول الفكر الإنساني من الميثولوجية الحائرة، إلى الحقيقة المطمئنة[12] .

ومن آيات الله في الطبيعة : "اللؤلؤ"، ولعله أعجب ما في البحار!

والقرآن الكريم تناول اللؤلؤ من عدة وجوه :

١ - من حيث أنه من آلاء الله في البحرين ؛ فقال - جل شأنه - :

﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾[١٣] .

يقول الشهيد سيد قطب : "ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ حلي غالية الثمن عالية القيمة، ويمتَنُّ الله على عباده بهما، فيعقب على ذكرهما في السورة ذلك التعقيب المشهود :

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[١٤] .

٢ - شبه به بعض النعيم المقيم في الآخرة :

أ) يقول تعالى : ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾[١٥]

والمعنى : ويطوف على المتقين في الجنة غلمان معدون لخدمتهم، كأنهم في الصفاء والبياض والتناسق لؤلؤ مصون في أصدافه[١٦] .

ب) يقول عز وجل : ﴿وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾[١٧] .

والمعنى : وللمتقين في الجنة نساء ذوات عيون واسعة، كأمثال اللؤلؤ المصون في أصدافه صفاءً وجمالاً ؛ جزاءً لهم بما كانوا يعملون من الصالحات في الدنيا[١٨]. يقول ابن عطية : وخص المكنون من اللؤلؤ ؛ لأنه أصفى لوناً وأبعد عن الغبر[١٩] .

جـ) يقول جل شأنه : ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾[٢٠] .

والمعنى : ويدور على هؤلاء الأبرار لخدمتهم غلمان دائمون على حالهم، إذا أبصرتهم ظننتهم - لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم - اللؤلؤ المفرق المضيء[٢١] .

٣ - جعله جزاءً لعباده المتقين :

أ) يقول الله تعالى : ﴿يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً﴾[٢٢] .

والمعنى : أن الله - تعالى - يدخل أهل الإيمان والعمل الصالح جنات نعيمها دائم . . . يزيَّنون فيها بأساور الذهب وباللؤلؤ[٢٣] .

يقول الزجاج : وفيها وجهان : أحدهما يحلون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ، ويجوز ولؤلؤاً على معنى يحلون أساور، لأن معنى من أساور كمعنى أساور . والتفسير على الخفض أكثر، على معنى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ . وجاء في التفسير أن ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ، كما قال عز وجل : ﴿. . . قوارير * قوارير من فضة﴾[٢٤] . كبياض الفضة، والفضة أصله . ويجوز

أن يكون يحلون من أساور من ذهب، ويحلون من لؤلؤ ويجوز على معنى ويحلّون لؤلؤاً[٢٥].

ب) يقول عز شأنه : ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً﴾[٢٦].

والمعنى : جنات إقامة دائمة للذين أورثهم الله كتابه يحلون فيها الأساور من الذهب واللؤلؤ[٢٧].

اللؤلؤ في روائع البيان :

لاشك أن لغة العرب غنية ذات دلالة على رقي وحضارة، وثروة وغناء ؛ لأن وضع اللفظ على الشيء دليل على وجوده . . .

ولعمري، إنه لا يمكن أن يكون تمدن لغوي، إلا بعد تمدن اجتماعي، راقٍ في حقيقته، وإن لم يرقَ في شكله، عامٍّ في أثره، وإن لم يعم في أهله . . .

صحيح أن العرب في عصرهم القديم كانوا أغنياء في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ؛ فأنت ترى غِنىً في رحاب اللغة فيما يتعلق بالصحراء والخيل والجمال، وما يتعلق بالمشاعر الجياشة، والأحاسيس الرقيقة، كما ترى ثراءً واسعاً عريضاً في اشتقاقها، وتصريف كلماتها بما يشعر شعوراً تاماً بغنى اللغة العربية وصلاحيتها للبقاء . . .

إن الذي ملأ اللغات محاسناً
جعل الجمال وسرّه في "الضاد"[٢٨]

ومن يتتبع معاجم اللغة، ويتلمس ما ورد فيها من مادة لغوية تتصل باللؤلؤ سواء أكان ذلك في شكل مسميات خاصة به أم صفات معينة، تستعمل على سبيل الحقيقة أو المجاز ؛ لأوقفنا على هذه الكثرة المطلقة من الألفاظ والتعبيرات التي يزخر بها معجمنا العربي لهذا المعدن النفيس !

ناهيك عن أدبنا العربي على اختلاف عصوره ؛ فلقد حفل منذ العصر الجاهلي بدرر من القصائد - تصلح سفراً -، تصف الغوص على اللؤلؤ في البحار المحيطة بشبه الجزيرة العربية، ومصاعب هذا الغوص ؛ بحثاً عن هذه الدرة العزيزة، ووصف البهجة حال العثور عليها !

يقول المسيب بن علس، وهو شاعر جاهلي، يصف ذلك في قصيدة له يقول فيها :

كجُمانـــة البحــريّ جاء بهـــا

غوّاصهـــا من لُجّـــة البحـــرِ

صُـلبُ الفــؤاد رئيس أربعـــة

متخـــالفي الألـــوان والنّجـرِ

فتنازعـــوا حتى إذا اجتمعـــوا

ألقـــوا إليـــه مقالـــد الأمـــرِ

وعـلت بهم سجحـــاء خادمـة

تهـــوي بهم في لُجّة البحـــرِ

حـــتى إذا ما ســـاء ظنهـــم

ومضـــى بهم شهر إلى شهـــرِ

ألقـــى مراسيـــه بتهـــلكـــه

ثبتت مراسيهـــا فما تجري

فانصـــبَ أسْــقفُ رأســـه لبد

نُزعـــت رباعيتـــاه للصـــبرِ

أشـــفى يـــمجُّ الزيت مـــلتمسٌ

ظمـــآن ملتهـب مـــن الفقـــرِ

قتـــلت أبـــاه فقـــال أتبعـــه

أو أستفيـــد رغيبـــة الدهـــرِ

نصـــف النهـــار المـــاء غامـره

ورفيقـــه بـــالغيب لا يـــدري

فأصـــاب منيتـــه فجـــاء بهـــا

صدفيـــة كمضيئـــة الجمـــرِ

يعطـــي بهـــا ثمنـــاً ويمنعهـــا

ويقـــول صاحبه ألا تشـري؟

وترى الصراري يسجدون لهـــا

ويضمهـــا بيديـــه للنحـــرِ

فتـــلك شـــبه المالكيـــة إذ

طلعت ببهجتها من الخدر(٢٩)

وهذا هو الأعشى، ميمـــون بـــن قيس، يصف حبيبته بالدرة الزهراء التي أخرجها غواص دارين غير آبه بالغرق في سبيل الحصول عليها !

يقول الأعشى :

كأنهـــا درة زهـــراء أخرجهـــا

غواص دارين يخشى دونها الغرقـــا

قد رامها حججاً مذْ طرّ شاربه

حتى تسعسع يرجـــوها وقد خفقـــا

لا النفس توئسه منها فيتركها

وقد رأى الرغْبَ رأي العين فاحترقا

ومارد من غواة الجن يحرسها

ذو نيقـــة مســـتعد دونهـــا ترقـــا

ليست له غفلـــةٌ عنها يُطيف بهـــا

يخشى عليها سُرَى السارين والسرقا(٣٠)

ولم يقف الشعراء عند هذا الحد، بل وصفوا محاسن المرأة وشبهوها بـاللؤلؤ في الصفـاء والحسن ونعومـة البشـرة وأن جميع جسدها في الحسن كالوجه .

يقول بشار بن برد في قصيدة له :

إذا رآها نساء الحي قلن لهـــا

سبحان من صاغها ! يغرقن إطنابا

كأنما خلقت من جلد لؤلـــؤة

نفساً من العطر إن حركتها ثابا(٣١)

من هنا ، فإن طه حسين قد وَهِمَ حين قال : "إنا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه، فإذا ذكر، فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل" ![32].

فلقد كان "الغوص على اللؤلؤ موضوعاً مهماً في قصائد الجاهليين والإسلاميين، لا يقل شأناً عن غيره من الموضوعات التي تطرق إليها أولئك الشعراء مثل وصف الأطلال والناقة والأنواء . فضلاً عن تداول الشعراء لعدد من المعاني المتعلقة باللآلئ كالبهاء، والنضارة والنعومة وغير ذلك ؛ مما يدل على شهرة هذه الحرفة وأهميتها لعرب الجزيرة العربية"[33] .

معجم أسماء اللؤلؤ في اللسان العربي

« باب التاء »

التوم:

في القاموس المحيط : التومةُ، بالضم : اللؤلؤة . وجمعها : تومٌ وتُوَمٌ، والقرط فيه حبة كبيرة، وبيضة النعام . وأمُّ تومة : الصدف[٣٤] .

وفي مختصر كتاب العين : التُّومة : القرط[٣٥] .

قال ابن منظور : التُّومَةُ : اللؤلؤة، والجمع تُوَمٌ وتومٌ ؛ قال ذو الرمة :

وصفٌ كأن الندى والشمسُ ماتِعَةٌ إذا توقد في أفنانه التُّومُ

قال أبو عمرو : هي الدرَّةُ والتُّمةُ والتؤاميةُ واللطميَّة . . .

قال أبو منصور : من قال للدرة تُومةٌ شبَّهها بما يُسَوَّى من الفضة كاللؤلؤة المستديرة تجعلها الجارية في أذنيها، ومن قال تؤاميةٌ فهما درّتان للأذنين إحداهما توأمةُ الأخرى .

والتُّومةُ : بيضة النعام تشبيهاً بتومة اللؤلؤ، والجمع كالجمع ؛ قال ذو الرمة :

وحتى أتى يومٌ يكادُ من اللظى به التُّومُ في أفْحُصِهِ يتصيَّحُ

قال أبو عبيدٍ : يعني البيْضَ . ويتصيَّحُ : لغةٌ في يتصوَّح بمعنى يتشقق .

وقال ذو الرمة يصف نباتاً وقع عليه الطلُّ فتعلق من أغصانه كأنه الدُّرُّ فقال :

وصف كأن الندى والشمس ماتعةٌ إذا توقد في أفنانه التُّومُ

أفنانُهُ : أغصانه، الواحد : فنن . .توقَّد : أنار لطلوع الشمس عليه[٣٦] .

وفي الصحاح : التُّومة بالضم : واحدة التوم، وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة وذكر أن النسبة تعود إلى توَام وهي قصبة عُمان مما يلي الساحل وينسب إليها الدرُّ[٣٧] .

« باب الثاء »

الثعثع :

في القاموس المحيط : الثَّعْثَعُ : اللؤلؤ، والصدف، والصوف الأحمر[٣٨] .

قال ابن منظور : والثعثعُ : اللؤلؤ ويقال للصدف ثَعْثَعٌ، وللصوف الأحمر ثعثعٌ أيضاً . قال الأزهري في خطبته فيما عثر فيه على غلط أحمد البُشْتيّ إنه ذكر أن أبا تراب أنشد :

إن تَمْنعي صَوبك صَوبَ المَدْمَعِ يجري على الخدّ كضِئْبِ الثعثعِ

فقيّد البُشْتيُّ : الثعثع، بكسر الثاءين، بخطه، ثم فسر ضِئْبَ الثعثع أنه شيء له حَبّ يزرعُ، فأخطأ في كسر الثاءين وفي التفسير، والصواب : الثَّعْثَعُ، بفتح الثاءين، وهو صدف اللؤلؤ، قال ذلك : أحمد بن يحيى ومحمد بن يزيد المبرّد[٣٩] .

﴿ باب الجيم ﴾

الجمانة :

في مختصر كتاب العين : الجمان من الفضة : كاللؤلؤ[٤٠] .

يقول الرازي : الجمانةُ : حبّةٌ تُعمل من الفضة كالدرة، وجمعه جُمانٌ[٤١] .

وفي القاموس المحيط : الجُمانُ، كغراب : اللؤلؤ، أو هنواتٌ أشكال اللؤلؤ من فضة، الواحدة : جُمانَةٌ، وسفيفةٌ من أدم ينسج، وفيها خرز من كل لون،تتوشحه المرأة، أو خرز يُبيّضُ بماء الفضة[٤٢] .

وفي المعجم العربي الأساسي : جُمان : اللؤلؤ، واحدته جمانةٌ[٤٣] .

يقول ابن منظور : الجُمانُ : هنوات تتخذ على أشكال اللؤلؤ من فضة، فارسيٌّ معرب، واحدته جُمانةٌ، وتوهمه لبيد لؤلؤ الصدف البحري ؛ فقال يصف بقرة :

وتضيء في وجه الظلام منيرة كجمانة البحريّ سُلّ نظامها[٤٤]

وفي المعرب : الجمان : خرزٌ من فضة أمثال اللؤلؤ . فارسيٌّ معرب وقد تكلمت به العرب قديماً .

وجعل لبيد الدرة جُمانةً ؛ فقال :

كجُمانة البحريّ سُلّ نظامها[٤٥]

يقول أدّي شير[٤٦] : وجمانة مأخوذة إما عن الفارسيّ جمان ومعناه : المرج، والمخضرة والجنينة، ويطلق أيضاً على كل شيء مقبول، أو عن اللاتيني gemma [٤٧] .

﴿ باب الحاء ﴾

قال الفيروز آبادي

والحص، بالضم : الوَرْسُ، أو الزعفران والجمع : حُصوصٌ واللؤلؤةُ[48] .

وفي اللسان : والحُصُّ : الورْسُ ، وجمعه أحْصاصٌ وحصوصٌ، وهو يُصْبَغُ به ، قال عمرو بن كلثوم :

مشعشعةً كأن الحصَّ فيها   إذا ما الماءُ خالطها سخينا[49]

قال الأزهري : الحُص : بمعنى الوَرْس معروفٍ صحيحٌ ويقال هو الزعفرانُ، قال : وقال بعضهم الحص : اللؤلؤ، قال : ولست أحُقُّهُ ولا أعرفه[50] .

﴿ باب الخاء ﴾

الخريدة :

في اللسان : الخريدةُ والخريدُ والخَرُودُ من النساء : البكرُ التي لم تُمس قط . .

وكل عذراء : خريدة .

والخريدةُ اللؤلؤة قبل ثقبها ؛ قال الليث : سمعت أعرابياً من كَلْبٍ يقول : الخريدة التي لم تُثْقَبْ، وهي من النساء البكر، وقد أخْرَدَتْ إخراداً .

قال ابن الأعرابيّ : لؤلؤةٌ، خريدٌ : لم تثقب[51] .

وفي تهذيب اللغة : الخريدة : الدرة التي لم تثقب، وهي من النساء : البكر[52] .

وفي القاموس المحيط : الخريدة : اللؤلؤة لم تُثْقبْ[53] .

وفي المعجم العربي الأساسي : والخرِيدة جمعها : خرائد : وهي اللؤلؤة التي لم تثقب . أو الفتاة العذراء (على التشبيه)[54] .

الخضلة :

في مختصر كتاب العين : والخضل : اللؤلؤ . ودرة خاضلة : صافية[55] .

وفي القاموس المحيط : والخِضْلُ، ويحرك : اللؤلؤ، أو الدر الصافي[56] .

يقول ابن منظور : والخِضْلُ : اللؤلؤ، بسكون الضاد، يثربيّة ، واحدته خضلة . ولؤلؤة خضلةٌ : صافية ، وجاءت امرأة إلى الحجاج برجل فقالت : تزوجني هذا على أن

يعطيني خضلاً نبيلاً، يعني لؤلؤاً صافياً جيداً . ودرة خضلةٌ : صافية، والنبيل : الكثير[٥٧] .

الخوضة :

يقول الفيروز أبادي : والخوضةُ : اللؤلؤة[٥٨] .

وفي تهذيب اللغة : عمرو عن أبيه : الخوضة : اللؤلؤة[٥٩] .

«باب الدال»

الدرة :

في مختصر كتاب العين : الدر : العظام من اللؤلؤ، والدُّرَرُ : جمع . وكوكب دُرّيٌّ : ثاقب مضيء[٦٠] .

يقول الرازي : والدرَّةُ : اللؤلؤة، والجمع دُرٌّ ودُرَّاتٌ ودُرَرٌ . والكوكب الدري : الثاقب المضيء ؛ نسِبَ إلى الدُرّ لبياضه . وقد تكسر الدال فيقال : دِرِّيٌّ مثل سُخْرِيٌّ وسِخريٌّ ولُجِّيٌّ ولِجِّيٌّ[٦١] .

وفي القاموس المحيط : والدِّرَّةُ، بالكسر : التي يُضرب بها، والدم، وسيلان اللبن، وكثرته، وبالضم : اللؤلؤة العظيمة، والجمع دُرٌّ ودُرَرٌ ودُرَّاتٌ .ودُرٌّ : من أعلام الرجال . ودُرَّةٌ بنتُ أبي لهب، وبنتُ أبي سلمةَ : صحابيتان . و﴿ كوكبٌ دُرّيٌّ ﴾[٦٢] : مضيء، ويُثَلَّثُ[٦٣] .

وفي المعجم العربي الأساسي : دُرَّةٌ جمعها دُرٌّ ودُرَرٌ : لؤلؤة عظيمة كبيرة . . دُرّيٌّ : منسوب إلى الدرّ في صفائه وحسنه وبهائه، ويشبَّه به الكوكب ﴿كأنها كوكبٌ دُرّيٌّ﴾[٦٤] .

يقول ابن منظور : والدرَّةُ : اللؤلؤة العظيمة ؛ قال ابن دريد : هو ما عظُم من اللؤلؤ، والجمع دُرٌّ ودُرَّاتٌ ودُرَرٌ ؛ وأنشد أبوزيد للرُبَيّع بن ضَبُع الفزاري :

أَقفَرَ من فَيَّةَ الجريب إلى الزُجْـ ... جَـيْنِ إلا الظباء والبقـرا
كأنهـا دُرَّةٌ منعَّمـةٌ ... في نسوة كن قبلها دُررا

وكوكبٌ دُرّيٌّ ودِرّيٌّ : ثاقب مضيءٌ[٦٥] .

يقول الزركشي : الدّرّيّ : المضيء بالحبشية[٦٦] .

ويقول السيوطي : قال شيد له في البرهان : الدَّرِيَّ : المضيء بالحبشية . وكذا قال أبو القاسم في لغات القرآن، والواسطي في الإرشاد[٦٧] .

وفي قاموس الفارسية : درّي : متلألئ، وضّاء، منير[٦٨] .

«باب السين»

السَّفَّانة :

يقول الفيروز آبادي : والسَّفَّانَةُ، مشدَّدةٌ : اللؤلؤةُ، وبنت حاتم طيِّئ[٦٩] .

«باب الصاد»

الصَّدَف :

في مختصر كتاب العين : الصَّدف : غِشاءُ خَلْقٍ في البحر تضمه صدفتان مُفْرَجَتان عن لحم فيه يسمى المحارة وفي مثله يكون اللؤلؤ[٧٠] .

وفي مختار الصحاح : وصَدَفُ الدُّرَّة : غشاؤها، الواحدة : صدفَةٌ[٧١] .

وفي القاموس المحيط : الصَّدَفُ، محركة : غشاء الدر، الواحدة : بهاء، والجمع : أصداف[٧٢] .

يقول ابن منظور : والصَّدف : المحارُ، واحدته صدفةٌ . . . وفي حديث ابن عباس : "إذا قطرت السماءُ فتحتِ الأصداف أفواهها" ؛ الأصدافُ : جمع الصدف، وهو غِلافُ اللؤلؤ، وهو من حيوان البحر[٧٣] .

«باب الطاء»

المُطَبَّق :

في اللسان : والمطَبَّقُ : شيء يلصق به قِشْرُ اللؤلؤ فيصير مثله[٧٤] .

وفي التهذيب : والمطبق شبه اللؤلؤ، إذا قُشِر اللؤلؤ أُخذ قشره ذلك فأُلصِق بالغراء بعضه على بعض فيصير لؤلؤاً أو شبهه(٧٥) .

﴿باب الفاء﴾

الفريدة :

يقول الرازي : والفريد : الدرُّ إذا نُظِّم وفُصِّل بغيره . وقيل : فرائد الدر : كبارها(٧٦) .

وفي القاموس المحيط : والفريد : الشَّذْرُ يفصل بين اللؤلؤ والذهب، والجمع : فرائد، والجوهرة النفيسة، كالفريدة، والدرُّ إذا نظِّم وفصِّل بغيره، وبائعها وصانعها : فرَّادٌ(٧٧) .

وفي المعجم العربي الأساسي : فريدة جمعها : فرائدُ : وتعني جوهرة نفيسة(٧٨) .

يقول الزجاج : أفردت الشيء جعلته فريداً(٧٩) .

يقول ابن منظور : والفريد والفرائد : الشَّذْرُ الذي يفصل بين اللؤلؤ والذهب، واحدته فريدة . . . وبياعه : الفرَّاد .

والفريدُ : الدرُّ إذا نظم وفصل بغيره ؛ وقيل : الفريدُ، بغير هاءٍ، الجوهرة النفيسةُ، كأنها مفردةٌ في نوعها ؛ والفرَّادُ صانعها . وذهبٌ مفَرَّدٌ : مفصل بالفريد .

وقال إبراهيم الحربيّ : الفريد جمع الفريدة وهي الشَّذْرُ من فضة كاللؤلؤة . وفرائد الدرِّ : كبارها(٨٠) .

﴿باب القاف﴾

القُرْط :

يقول ابن منظور : القُرْط : نوع من حلي الأذن معروف ؛ وقرَّطت الجارية فتقرَّطتْ هي . قال الراجز يخاطب امرأته :

قرَّطكِ الله على العينين   عقارباً سوداً وأرقمين

وجارية مقرطة : ذات قرط[٨١] .

القلقيّ :

في اللسان : والقلقيُّ : ضرب من الحلْي ؛ قال ابن سيده : ولا أدري إلى أي شيء نُسِب إلا أن يكون منسوباً إلى القلق الذي هو الاضطرابُ ، كأنه يضطربُ في سلكه ولا يثبُتُ ؛ فهو ذو قلق لذلك ، قال علقمة بن عبده :

محالٌ كأجواز الجراد ولؤلؤٌ   من القلقِيِّ والكبيس الملَوَّب[٨٢]

يقول الأعلم الشنتمري : والقَلَقيُّ جنس من اللؤلؤ مدحرج لا يستقر[٨٣] .

وفي القاموس المحيط : والقَلَقِيُّ : ضرب من القلائد[٨٤] .

وفي التهذيب : القَلَقِيُّ : ضرب من اللؤلؤ . وقيل هو من القلائد المنظومة باللؤلؤ[٨٥] .

﴿باب اللام﴾

اللؤلؤ :

في المعجم العربي الأساسي : لُؤلُؤ : واحدته لُؤلُؤة، والجمع لآلِئ : درٌ يتكون من الأصداف، وهو كرويٌّ صلب لماع[٨٦] .

يقول الرازي : واللؤلؤة : الدرة والجمع اللؤلؤ واللآلئ[٨٧] .

وفي القاموس المحيط : اللؤلؤ : الدر، واحده : بهاء، وبائعه :لأّلٌ ولأّءٌ ولألاءٌ، والقياس : لُؤلُؤيٌّ، لألآءٌ ولالآلٌ، ووهِمَ الجوهريّ، وحرفته اللُّئالَةُ[٨٨] .

يقول ابن منظور : قال أبو عبيد : قال الفرّاء سمعت العرب تقول لصاحب اللُّؤلُؤ لأّءٌ على مثال لعّاع، وكره قول الناس لأّلٌ على مثال لعّال .

قال الفارسي : هو من باب سبْطَر .

وقال علي بن حمزة : خالف الفراء في هذا الكلام العرب والقياس ؛ لأن المسموع لأّلٌ والقياس لُؤلُؤيٌّ ، لأنه لايبنى من الرباعيّ فعّالٌ، ولأّلٌ شاذ[٨٩] .

اللطيمة :

في مختصر كتاب العين : اللطيمة : سوق فيها أوعية العطر ونحوها[٩٠] .

وفي القاموس المحيط : واللطيمة : وعاء المسك، أو سوقه، أو عيرٌ تحمله[٩١].

يقول ابن منظور : وقول أبي ذؤيب :

فجاء بها ما شئت من لطَميَّةٍ تدور البحـار فوقها وتمـوجُ

إنما عَنَى دُرَّةً[٩٢].

وفي شرح هذا البيت ؛ يقول السكري : (فجاء بها) : أي بـالدرة . أي جلبت في الطائم . و(اللطيمة) : عير تحمـل التجـارة والعطـر، فـإن لم يكـن فيـها عطـر، فليست بلطيمة، فجعل هذه الدرة تحملها عير اللطيمـة . (تـدور البحـار) : أي تسكن فوقـها . (وتموج) : أي تتحرك فتجيء وتذهب[٩٣].

هذا ؛ وذكر البيروني أن "اللطيمة" من أسماء اللآلئ، وهي كما قيل نسبة إلى اللطيمة في شعر أبي ذؤيب وغيره ولما لم تكن لطيمته نسبة إلى عير الطيب .

وقيل أيضاً إنها نسبة إلى البحر من قبل تلاطم الأمواج . وكذلك الصدفيـة نسبة إلى الصدف .

قال النابغة يصف امرأة :

كمضيئـة صدفيـة غَوّاصُها بَهِجٌ ومن يرها يهِلُّ ويسجد

يعني من الفرح والابتهاج بالدرّة[٩٤].

﴿باب الميم﴾

المرجان :

يقول الرازي : والمَرجانُ : صغار اللؤلؤ[٩٥].

وفي القاموس المحيط : والمَرجانُ : صغار اللؤلؤ، وبَقْلَةٌ رِبْعِيَّةٌ، واحدتها : بهاء[٩٦].

وفي المعجم العربي الأساسي[٩٧] : المرجان : جنس حيوانات بحرية ثوابت من طائفة المرجانيات، يعد من الأحجار الكريمة وهو غالباً أحمر اللون ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمَرجانُ﴾[٩٨].

يقول ابن قتيبة في تفسيره : و "اللؤلؤ" : كبار الحَبِّ . و "المَرجان" : صغاره[٩٩].

وفي اللسان : والمَرْجان : اللؤلؤ الصغار أو نحوه، واحدته مَرْجانةٌ، قال الأزهري : لا أدري أَرُباعيٌّ هو أم ثلاثيٌّ ، وأورده في رباعيِّ الجيم، وقال بعضهم : المَرجانُ البُسَّدُ،

وهو جوهر أحمر . قال ابن برِّيّ : والذي عليه الجمهور أنه صغار اللؤلؤ، كما ذكره الجوهري ؛ والدليل على صحة ذلك قول امرئ القيس بن حجر :

أذود القــوافي عني ذياداً ذيــادَ غلام جريٍّ جيادا
فأعزلُ مَرْجانهــا جانبـا وآخُذُ من دُرِّها المستجادا[١٠١]

يقول الجواليقي في المعرب : والمرجان : ذكر بعض أهل اللغة أنه أعجمي معرَّب . قال أبو بكر : ولم أسمع له بفعل متصرف وأحرِ به أن يكون كذلك[١٠٢] .

أقول[١٠٢] : وهو بالسريانية ܡܪܓܢܐ (مركنـا) وهو مقتطع من ܡܪܓܢܝܬܐ (مركـانيثا) . وهو بالعبرية מרכל (مركل) مـن מרכניתא ، מרכליתא (مركنيتا ، مركليتا) . وكل هذا مأخوذ من الكلمة اليونانية μαργαρίτης (مركديتيس) ومعناه : اللؤلؤ (جفري ودوزي)[١٠٣] . ومنه العلم الإنجليزي **Maragaret** .

من ثم ؛ فكلمة مرجان يونانية الأصل[١٠٤] .

المهاة :

يقول الرازي : المَهَاة : البلُّورة[١٠٥] .

وفي القاموس المحيط : والمَهْوُ : الرُّطَبُ، واللؤلؤ[١٠٦] .

يقول ابن منظور : وفي النوادر : المَهْوُ : البَرَدُ . والمَهْوُ حصىً أبيض يقال له بُصاقُ القمر . والمَهْوُ : اللؤلؤ، ويقال للثغرِ النقيِّ، إذا ابيضَّ وكثر ماؤه : مهاً ؛ قال الأعشى :

ومهــاً تــرفُّ غُروبُــهُ يَشْفِي المتيَّمَ ذا الحرارَهْ

والمهاةُ : الحجارة البيض التي تبرق، وهي البلُّورُ . والمَـهاةُ : البلُّورَةُ التي تَبِصُّ لشدة بياضها، وقيل : هي الدرَّةُ، والجمع مهاً ومهواتٌ ومَهَياتٌ .

والمهاةُ : بقرة الوحش، سميت بذلك لبياضها على التشبيه بـالبلُّورة والـدرَّة، فـإذا شبهت المرأة بالمهاةِ في البياض فإنما يُعْنَـى بـها البلورة أو الـدرة، فـإذا شبهت بـها في العينين فإنما يُعْنى بها البقرة، والجمع مهـاً ومـهواتٌ، وقد مـهت تمـهو مهـاً في بياضها[١٠٧] .

﴿باب النون﴾

النَّطَفَة :

في مختصر كتاب العين: النُّطَف : اللؤلؤ، الصافي الماء . . . ووصيفة مُتَنَطِّفَة مُتَقَرِّطة بتُومَتين[١٠٨] .

وفي القاموس المحيط : والنُّطَفتان، بالتحريك، وكهُمَزَة : القُرْط، أو اللؤلؤة الصافية، أو الصغيرة، وجمعها : نُطَف . وتنطَّفت : تقرَّطت . ووصيفة مُنَطَّفة : مُقَرَّطة[١٠٩] .

يقول ابن منظور : والنَّطَفُ والنُّطَفُ : اللؤلؤ الصافي اللون، وقيل : الصِّغارُ منها، وقيل : هي القِرْطَةُ، والواحدةُ من كل ذلك نَطَفَةٌ ونُطَفَةٌ، شبِّهت بقطرة الماء . والنُّطَفَةُ، بالتحريك : القُرْط . وغلام منُطَّفٌ : مقرَّط[١١٠] .

﴿باب الهاء﴾

الهَيْجُمانة :

في تهذيب اللغة : الهَيْجُمانةُ : الدرّة . وهي الونيَّة[١١١] .

﴿باب الواو﴾

الونيَّة :

يقول الفيروز آبادي : والوَنِيَّةُ : اللؤلؤة، كالوناة، أو العقد من الدُّرّ[١١٢] .

وفي اللسان : وقال أبو العباس : الوَني واحدته ونية وهي اللؤلؤة ؛ قال أبو منصور : واحدةُ الوني وناةٌ لا ونِيَّةٌ، والوَنِيَّةُ : الدُّرّة ؛ قال أبو عمرو : هي الوَنِيَّةُ والوناةُ للدُّرَّة ؛ قال ابن الأعرابي : سُمِّيت ونيَّةً لثُقْبها . وقال غيره : جاريةٌ وناةٌ كأنها الدرة، قال والونية اللؤلؤة، والجمع ونًى ؛ أنشد ابن الأعرابيّ لأوس بن حجر :

فحطَّت كما حطَّت ونِيَّةُ تاجر ... وَهَى نظمُها فارفَضَّ منها الطوائف

شبهها في سرعتها بالدرّة التي انحطّت من نظامها، ويُروى : وهيَةُ تاجرٍ، وهو مذكور في موضعه .

والوَنِيَّةُ : العِقْدُ من الدُّرّ ، وقيل الونية : الجوالق[١١٣] .

الوَهيَّة :

في القاموس المحيط : والوهِيَةُ : الدُّرَّةُ[١١٤] .

وفي اللسان : والوَهِيَةُ : الدرة ، سميت بذلك لِثَقْبها لأنَّ الثَّقْبَ مما يضعفها (عن ابن الأعرابي) وأنشد :

فحطَّتْ كما حطَّت وهِيَةُ تاجر وَهَى نظْمُها فارفَضَّ منها الطوائفُ

قال : ويُرْوى ونيَّة تاجر، وهي دُرَّةٌ أيضاً، وقد تقدم[١١٥] .

«باب الياء»

اليتيمة :

يقول الرازي : كل شيء مفردٍ يعزُّ نظيره فهو يتيم، يقال : دُرَّة يتيمة[١١٦] .

وفي اللسان : كلّ شيء مفرد بغير نظيره فهو يتيم . يقال : درَّة يتيمة[١١٧] .

وفي الجماهر : كانت اليتيمة ثلاثة مثاقيل، وسميت يتيمة لذهاب صدفها قبل إيلاد أخت لها .

ويسمى أيضاً مثلها فريداً إذا عدمت نظيرتها فاضطر إلى تصييرها واسطة العقد، وسميت القلادة[١١٨] .

وفي المعجم العربي الأساسي : يتيمةٌ وجمعها يتامى، وهي دُرَّةٌ ثمينة لا نظير لها[١١٩] .

الدكتور محمد السيد علي بلاسي - جامعة الأزهر

الهوامش

١ – كتاب اللؤلؤ : للدكتور عبد الله يوسف الغنيم، ص٥٩، الطبعة الثانية – دار البشائر الإسلامية، ١٤١٩هـ .

٢ – الكونشولين Conchiolin : كلمة يونانية تعني الصدفة Shell، ومنها جاء مصطلح علم المحاريات Conchology .

أنظر : هامش المرجع السابق : ص٥٩ .

٣ – نفس المرجع ص٥٩ و٦٠، نقلا عن أزهار الأفكار : للتيفاشي، (تعليقات المحقق)، ص٢٤٤ .

والجواهر والأحجار الكريمة : يارسولاف بور وفلاديمير بوسكا، ترجمة ميشيل خوري، ص٢١٩ .

٤ – في ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب، ٣٤٥٣/٦، الطبعة الثانية عشرة، دار الشروق، سنة ١٤٠٦هـ .

نقلا عن كتاب الله والعلم الحديث : ص١٠٥ .

٥ – كتاب اللؤلؤ : ص٥٩ .

٦ – لمزيد من التفصيل ؛ يراجع : باب اللام، كلمة اللؤلؤ، في "معجم اللآلئ في اللسان العربي" ص٣٨ .

٧ – المعجم العربي الأساسي : مادة (ل أ ل أ) . تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب، ط. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سنة ١٩٨٩م .

٨ – عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ : للسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق د. عبد السلام أحمد التونسي الحلبي، ٢٣٤٤/٤، الطبعة الأولى – جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في ليبيا، سنة ١٩٩٥م

٩ – المصدر السابق : ٢٣٤٤/٤، ٢٣٤٥ .

١٠ – سورة البقرة : آية ١٦٤ .

١١ – الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي : للأستاذ محمد بن عبد العزيز بنعبدالله، ١٢٣/١ – بتصرف – ط. مطبعة فضالة سنة ١٤١٧هـ .

١٢ – المرجع السابق : ١٢١/١ .

١٣ – سورة الرحمن : الآيات ١٩ – ٢٢ .

١٤ – في ظلال القرآن : ٣٤٥٤/٦ .

١٥ – سورة الطور : آية ٢٤ .

١٦ – التفسير الميسر : إعداد نخبة من العلماء، ص٥٢٤، ط. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٩هـ .

١٧ – سورة الواقعة : الآيتان ٢٢، ٢٣ .

١٨ – التفسير الميسر : ص٥٣٥ .

١٩ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية (ت ٥٤٦هـ)، ٣٦٦/١٥، ط. وزارة الأوقاف المغربية، سنة ١٤١١هـ .

٢٠ – سورة الإنسان : آية ١٩ .
٢١ – التفسير الميسر : ص٥٧٩ .
٢٢ – سورة الحج : من الآية ٢٣ .
٢٣ – التفسير الميسر : ص٣٣٤ .
٢٤ – سورة الإنسان : من الآيتين ١٥ ، ١٦ .
٢٥ – معاني القرآن وإعرابه : للزجاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، ٢٧٠/٤، الطبعة الأولى – عالم الكتب، ١٤٠٨هـ .
٢٦ – سورة فاطر : من الآية ٣٣ .
٢٧ – التفسير الميسر : ص٤٣٨ .
٢٨ – الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي : ص٦٦، ٦٧ .
٢٩ – أنظر ؛ خزانة الأدب : للبغدادي، ٥٤٣/١، الطبعة الأولى – بولاق .
٣٠ – راجع ؛ ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) : ص٣٦٧، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، ١٩٥٠م .
٣١ – أنظر ؛ ديوان بشار بن برد : ٣١٨/٢، شرح محمد الطاهر بن عاشور ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٧م .
٣٢ – في الأدب الجاهلي : د. طه حسين، ص٨٩، الطبعة التاسعة – دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٨م .
٣٣ – كتاب اللؤلؤ : ص٣٨ .
٣٤ – القاموس المحيط : للفيروز آبادي، ص١٤٠٠ ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية – مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ .
٣٥ – مختصر كتاب العين : للخطيب الإسكافي، ١١٥٥/٣ ، تحقيق د. هادي حسن حمودي، الطبعة الأولى – وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، ١٤١٩هـ .
٣٦ – لسان العرب : لابن منظور، مادة (توم)، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، ط. دار المعارف، د.ت.
٣٧ – الصحاح : لأبي إسماعيل بن حماد الجوهري، ١٨٧٨/٥ .
٣٨ – القاموس المحيط : ص٩١٤ .
٣٩ – لسان العرب : مادة (ثعثع) .
٤٠ – مختصر كتاب العين : ٨٧٧/٢ .
٤١ – مختار الصحاح : للرازي، مادة (جمن)، ط. مكتبة لبنان، د.ت. .
٤٢ – القاموس المحيط : ص١٥٣١ .
٤٣ – المعجم العربي الأساسي : تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب، مادة (جمن) .
٤٤ – لسان العرب : مادة (جمن) .
٤٥ – المعرّب : للجواليقي، ص٢٦٠، تحقيق الدكتور ف. عبد الرحيم، الطبعة الأولى – دار القلم، ١٤١٠هـ
٤٦ – الألفاظ الفارسية المعرّبة : لأديّ شير الكلداني، ص٤٥، ط. المطبعة الكاثوليكية ببيروت، ١٩٠٨م .

٤٧ – يقول الدكتور ف. عبد الرحيم محقق كتاب "المعرّب : للجواليقي" (هامش ص٢٦٠) : ولا يوجد بالفارسية جمان بهذا المعنى . ذهب صاحب (الكلمات الفارسية في اللغة العربية) إلى أنه من كمان بالفارسية بمعنى الظن ؛ لأن كل من يراه يظنه لؤلؤاً ! وإن كان يرى – وإلى رأيه نميل – أنه من gemmans وهومشتق من gemma اللاتينية ومعناه : المحلّى بالحلي والجواهر .

٤٨ – القاموس المحيط : ص٧٩٣ .

٤٩ – قال الأنباري في شرح هذا البيت : الحُصُّ : الورث .

أنظر : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، للأنباري، ص٣٧٢، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. دار المعارف سنة ١٩٦٣م .

٥٠ – لسان العرب لابن منظور : مادة (حصص) .

٥١ – لسان العرب : لابن منظور، مادة (خرد) .

٥٢ – تهذيب اللغة : لمحمد بن أحمد الأزهري، مادة (خرد) .

٥٣ – القاموس المحيط : ص٣٥٧ .

٥٤ – المعجم العربي الأساسي : مادة (خ ر د) – بتصرف يسير – .

٥٥ – مختصر كتاب العين : ٥٢١/١ .

٥٦ – القاموس المحيط : ص١٢٨٣ .

٥٧ – لسان العرب : مادة (خضل) .

٥٨ – القاموس المحيط : ص٨٢٨ .

٥٩ – تهذيب اللغة : مادة (خاض) .

٦٠ – مختصر كتاب العين : ١١٠٧/٣ .

٦١ – مختار الصحاح : مادة (درر) .

٦٢ – سورة النور : من الآية ٣٥ .

٦٣ – القاموس المحيط : ص٥٠٠ .

٦٤ – المعجم العربي الأساسي : مادة (درر) .

٦٥ – لسان العرب : مادة (درر) .

٦٦ – البرهان في علوم القرآن : للزركشي، ص٢٨٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ – عيسى البابي الحلبي، د.ت. .

٦٧ – المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب : للسيوطي، تحقيق د. إبراهيم أبو سكين، ص٤٦، ط. الأمانة، سنة ١٤٠٠هـ .

٦٨ – قاموس الفارسية : د. عبد النعيم محمد حسين، ص٢٤٥، الطبعة الأولى، الناشر : دار الكتاب اللبناني ببيروت .

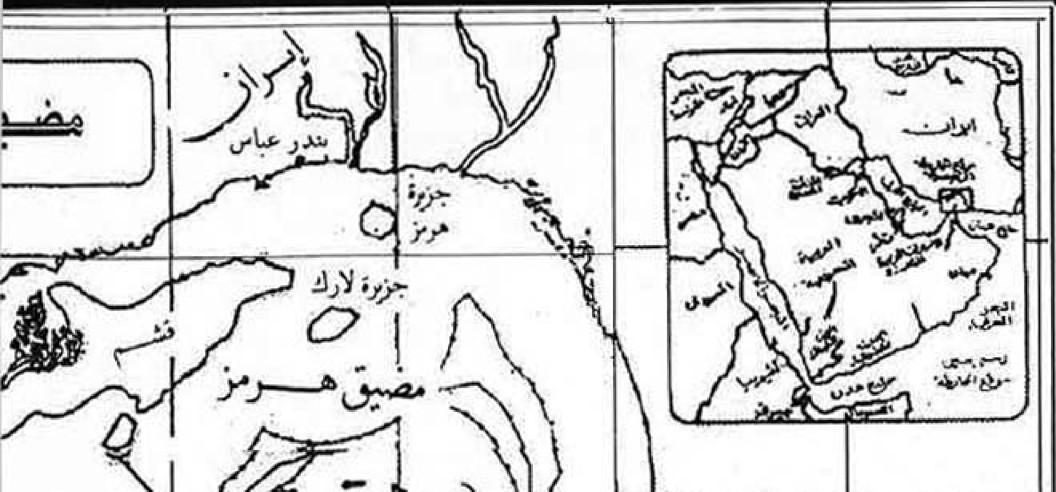
٦٩ – القاموس المحيط : ص١٥٥٦ .

٧٠ – مختصر كتاب العين : ص٩٧٤ .

٧١ – مختار الصحاح : مادة (ص د ف) .
٧٢ – القاموس المحيط : ص ١٠٦٨ .
٧٣ – لسان العرب : مادة (صدف) .
٧٤ – لسان العرب : مادت (طبق) .
٧٥ – تهذيب اللغة : مادة (طبق) .
٧٦ – مختار الصحاح : مادة (ف ر د) .
٧٧ – القاموس المحيط : ص٣٩٠ .
٧٨ – المعجم العربي الأساسي : مادة (ف ر د) .
٧٩ – فعلت وأفعلت : لأبي إسحاق الزجاج، ص١١٧، تحقيق ماجد حسن الذهبي، الطبعة الأولى – الشركة المتحدة للتوزيع بدمشق، سنة ١٤٠٤هـ . وانظر : "الاشتقاق عند الزجاج . . . مع عمل معجم اشتقاقي لغويّ من كتبه المتاحة" للدكتور محمد السيد علي بلاسي، ص٣٣٣، (رسالة دكتوراه مخطوطة محفوظة بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر) .
٨٠ – لسان العرب : مادة (فرد) .
٨١ – لسان العرب : مادة (قرط) .
٨٢ – لسان العرب : مادة (قلق) .
٨٣ – أنظر : ديوان علقمة الفحل، بشرح الأعلم الشنتمري : ص٨، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط. حلب ١٩٦٩م .
٨٤ – القاموس المحيط : ص١١٨٩ .
٨٥ – تهذيب اللغة : مادة (قلق) .
٨٦ – المعجم العربي الأساسي : مادة (ل أ ل أ) .
٨٧ – مختار الصحاح : مادة (ل أ ل أ) .
٨٨ – القاموس المحيط : ص٦٥ .
٨٩ – لسان العرب : مادة (لألأ) .
٩٠ – مختصر كتاب العين : ١٠٩٠/٣ .
٩١ – القاموس المحيط : ص١٤٩٥ .
٩٢ – لسان العرب : مادة (لطم) .
٩٣ – شرح أشعار الهذليين : للسكري، ١٣٤/١، بتحقيق عبد الستار فراج، ومراجعة الأستاذ محمود محمد شاكر، ط. دار العروبة بالقاهرة ١٩٦٥م .
٩٤ – راجع : الجماهر في معرفة الجواهر : لأبي الريحان البيروني ص١٠٧، ط حيدر آباد، سنة ١٣٥٥هـ
٩٥ – مختار الصحاح : مادة (مرج) .
٩٦ – القاموس المحيط : ص٢٦٣ .
٩٧ – المعجم العربي الأساسي : مادة (م ر ج) .

٩٨ – سورة الرحمن : آية ٢٢ .
٩٩ – تفسير غريب القرآن : لابن قتيبة، ص٤٣٨، تحقيق السيد أحمد صقر، ط. دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٣٩٨هـ .
١٠٠ – لسان العرب : مادة (مرج) .
١٠١ – المعرّب : للجواليقي، ص٣٧٧، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية – دار الكتب سنة ١٣٨٩هـ . وراجع : المهذب : للسيوطي، ص٨٦ .
١٠٢ – يراجع : "المعرب في القرآن الكريم . . دراسة تأصيلية دلالية" : ص٢٢٥ (رسالة ماجستير مخطوطة محفوظة بمكتبة كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر) .
١٠٣ – المعرّب والدخيل في اللغة العربية : د. عبد الرحيم عبد السبحان، ص٤٨٤ . وراجع : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية : طوبيا العنيسي، ص٦٨، ط. دار العرب للبستاني، سنة ١٩٦٤م . والألفاظ الفارسية المعربة : للسيد أدّي شير، ص١٤٤ . ط٢ – دار العرب للبستاني، سنة ١٩٨٧ . والمعرّب : للجواليقي، تحقيق الدكتور ف. عبد الرحيم، هامش ص٦٠٢، الطبعة الأولى – دار القلم بدمشق ١٤١٠هـ ؛ تجد مزيداً من التفصيل .
١٠٤ – أنظر : غرائب اللغة العربية : رفائيل نخلة اليسوعي، ص٢٦٩، ط٢ المطبعة الكاثوليكية . ببيروت، سنة ١٩٦٠م .
١٠٥ – مختار الصحاح : مادة (م هـ ا) .
١٠٦ – القاموس المحيط : ص١٧٢٢ .
١٠٧ – لسان العرب : مادة (مها) .
١٠٨ – مختصر كتاب العين : ١٠٩١/٣ .
١٠٩ – القاموس المحيط : ص١١٠٨ .
١١٠ – لسان العرب : مادة (نطف) .
١١١ – تهذيب اللغة : ٧٠/٦ .
١١٢ – القاموس المحيط : ص١٧٣٢ .
١١٣ – لسان العرب : مادة (وني) .
١١٤ – القاموس المحيط : ص١٧٣٣ .
١١٥ – لسان العرب : مادة (وهي) .
١١٦ – مختار الصحاح : مادة (ي ت م) .
١١٧ – لسان العرب : مادة (يتم) .
١١٨ – الجماهر في معرفة الجواهر : ص١٢٩ .
١١٩ – المعجم العربي الأساسي : مادة (ي ت م) .

مضيق هرمز



بندر عباس
جزيرة هرمز
جزيرة لارك
قشم
مضيق هرمز
جزيرة غنم
عمان
خليج عمان
الامارات العربية المتحدة

وأمن الخليج العربي

بقلم : الدكتور عبد القادر حمود القحطاني

العلاقة بين خليج هرمز وأمن الخليج العربي علاقة عضوية. فهو بمثابة الشريان التاجي لدول مجلس التعاون. وللعالم الغربي. ومن هذا المنطلق لا يمكن لأي باحث أن يتحدث عن أي منهما بمعزل عن الآخر . أي أن هذا الممر بعبارة أخرى يرتبط بدول الخليج سياسياً. واقتصادياً. وأمنياً. ولذلك تسعى دول مجلس التعاون الخليجي إلى المحافظة على سلامة وأمن الملاحة عبر هذا المضيق ومياه الخليج. لما في ذلك من منفعة لدول المنطقة وللعالم أجمع .

وقد حاولت من خلال هذا البحث أن أتناول الموضوع من النواحي الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية. والدور الغربي في الموضوع. وذلك من خلال المحاور التالية :

أولاً : أهمية موقع الخليج العربي .

ثانياً : أهمية مضيق هرمز للملاحة الدولية .

ثالثاً : مضيق هرمز وقانون البحار .

رابعاً : أمن الخليج العربي بعد ١٩٧١م .

خامساً : الحرب العراقية - الإيرانية (١٩٨٠ - ١٩٨٨م) وأثرها على أمن مضيق هرمز والخليج العربي .

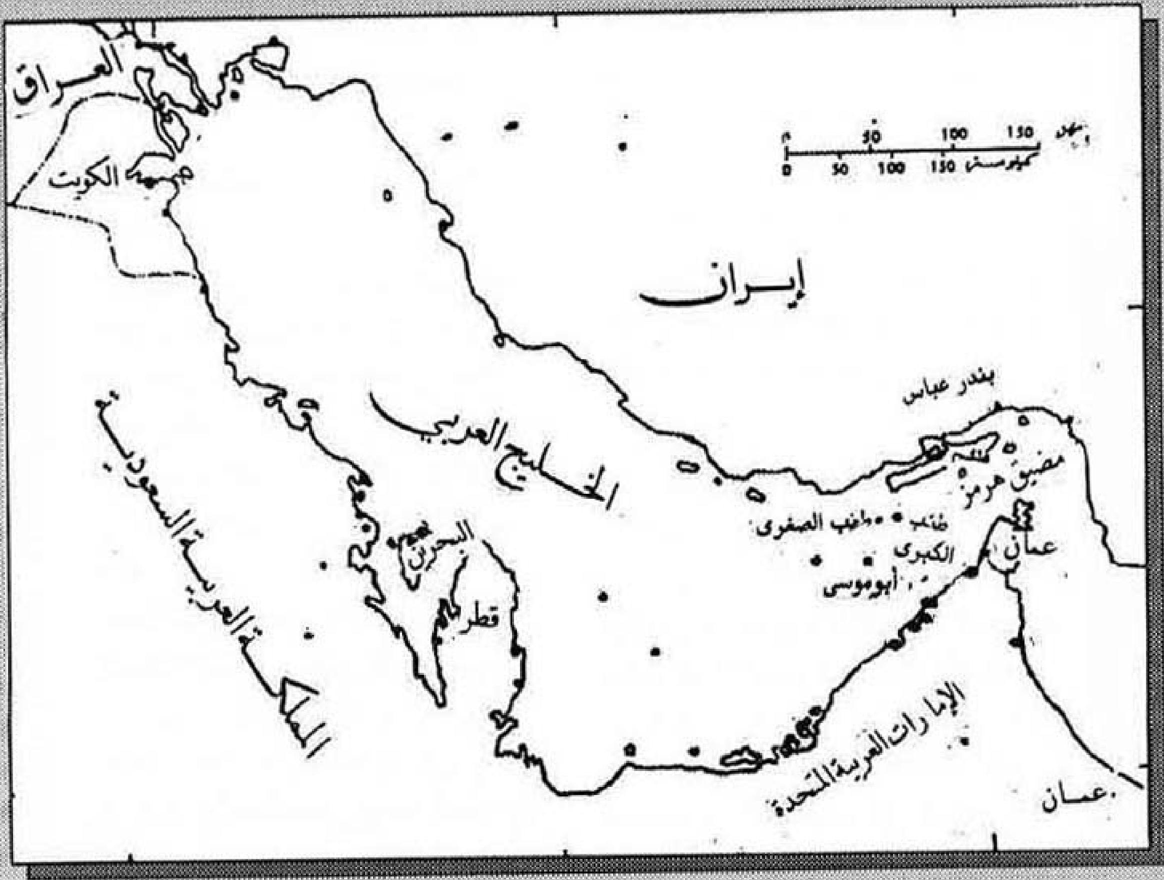


أولاً: أهمية موقع الخليج العربي

الخليج العربي هو الحد الشرقي من الوطن العربي لا تفصله عنه أية حواجز طبيعية[1] وتعتبر خريطة شبه الجزيرة العربية التي شملت منطقة الخليج العربي، والتي نشرها جاستالدي البندقي في عام ١٥٧١م، أول خريطة للخليج العربي، غير أن الخريطة التي نشرت عن الخليج في لندن في سنة ١٧٥٣م، تعتبر أكثر تفصيلاً . وقد اعتمدت هذه الخريطة على مخطوطات شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي تعود إلى القرن السابع عشر . ومع ذلك فإن الخريطة التي نشرت في عام ١٨٢٠م أيضاً في لندن عن الخليج العربي، تعد أكثر دقة ووضوحاً من غيرها من الخرائط، لأن رسمها تم بعد قيام الإنجليز بمسح الخليج مرتين خلال القرن التاسع عشر[2] . ويبلغ طول الخليج العربي بين مصب شط العرب وبين ساحل عمان نحو ٦١٥ ميلاً، وعرضه في أقصى اتساعه ٢١٠ أميال، وأضيق أجزائه عند مضيق هرمز ٢٥ ميلاً، وتبلغ مساحته ٩٧،٠٠٠ ميل مربع[3] .

ونظراً لأهمية موقع الخليج العربي المتوسط بين العالم القديم والعالم الجديد، فقد كانت السفن العربية منذ القدم تسلك في إبحارها وهي تنقل البضائع والسلع المختلفة من الشرق الأقصى والهند، طريق بحر الصين في المحيط الهندي فالبحر العربي فالخليج العربي حتى رأسه الشمالي جنوب العراق، ومن هناك تنتقل تلك الحمولات براً عبر العراق إلى حلب ثم إلى موانئ البحر المتوسط ليتم نقلها إلى البندقية وإلى بقية أنحاء العالم[4] .

وقد بدأت الملاحة في الخليج العربي مع بدء الحضارة الإنسانية فقد دلت الحفريات في بعض دول الخليج العربي على قيام حضارات قديمة في المنطقة يرجع تاريخها إلى خمسة آلاف سنة[5] . والأطماع الغربية في السيطرة على المواقع الاستراتيجية والمضايق البحرية في العالم العربي قديمة تعود إلى عهد الإسكندر المقدوني، وكورش، ولكن هذه الأطماع برزت بعد هزيمة الصليبيين على يد العرب بعد الحرب التي شنوها على العالم العربي



خريطة للخليج العربي ومبين عليها مضيق هرمز عن ر. ك. رمضاني

والإسلامي، تلك الانتصارات التي أرجعها رجال الفكر والسياسة الأوروبيين إلى قوة العرب الاقتصادية القائمة على التجارة وتحكمهم في المضايق البحرية الهامة .

وعلى ضوء ذلك وضع الأوروبيون خططاً معينة للسيطرة على هذه المضايق مثل مضيق هرمز، وباب المندب، وذلك لحرمان العرب من موارد التجارة . ومن هنا نستطيع القول إن السيطرة البرتغالية على مضيق هرمز، في العقد الأول من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي، تندرج تحت هذا المخطط العدواني على الأمة العربية والإسلامية . كما أن لفارس أو إيران، أطماعاً قديمة في الخليج العربي(٦)، والسيطرة والتحكم في بوابة الخليج مضيق هرمز، ويتبين لنا ذلك من خلال المذكرة التي بعثها (حاجي ميرزا) رئيس فارس إلى الحكومة البريطانية والتي جاء فيها :

"إن الشعور السائد لدى الحكومات الفارسية المتعاقبة أن الخليج (الفارسي) من بداية شط العرب إلى مسقط بجميع جزره وموانيه بدون استثناء ينتمي إلى فارس" .

ولذلك رأينا إيران تحاول أكثر من مرة الاستيلاء على البحرين، وبعد أن فشلت لجأت إلى احتلال الجزر الإماراتية الثلاث الواقعة عند مدخل مضيق هرمز، عام ١٩٧١م(٧) .

وقد ازدادت أهمية منطقة الخليج العربي عالمياً بعد اكتشاف النفط فيها بكميات هائلة في الثلاثينيات من القرن الحالي .

ولذلك نرى بعد أن كان الاهتمام العالمي بمنطقة الخليج يتركز بالدرجة الأولى على أهميتها الاستراتيجية والتجارية أصبح هذا العامل الجديد والهام في الاقتصاد هو العامل الأساسي في الاهتمام بالمحافظة على أمن المنطقة . ومما يعظم من أهمية المنطقة أن معظم إنتاجها من النفط يصدر إلى الخارج على شكل خامات وبأرخص الأثمان . وفي خطاب لنائب ملك بريطانيا في الهند عام ١٩٢٨م جاء فيه : "إذا كان الخليج العربي قبل عام ١٩٠٤م بحيرة مغلقة لا تقود إلى مكان فإنه قد صار الآن قناة اتصال في المواصلات الإمبراطورية وأصبح له أهمية قصوى لخدمة الطريق الجوي وأعطى استثمار النفط له وزناً كبيراً، وعلى الحكومة البريطانية عدم

السماح لأي قوة أن تقيم قاعدة طيران في أي منطقة يصل مدى الطيران منها إلى الخليج العربي"[8].

نستطيع أن نقول، إن أهمية الخليج العربي في تاريخنا المعاصر، لا تأتي من كونه ذا موقع استراتيجي يرتبط بالمواصلات عبر البحر الأحمر والمتوسط فحسب بل تتعلق بدرجة عالية من الخطورة بمصير العالم الصناعي، خاصة بأوروبا واليابان، اللتين تعتمدان على نفط المنطقة، حيث إن أكثر من ٢٠ مليون برميل من النفط يمر يومياً عبر مضيق هرمز إلى الدول المستهلكة[9].

وتبعاً لهذه الأهمية فإنه إذا ما تم إغلاق مضيق هرمز، بسبب وجود وضع معادٍ على أحد جانبي الخليج أو بشقيه الشرقي والغربي، فإن ذلك يعني كارثة حقيقية للدول المستوردة وللدول الخليجية المصدرة للنفط[10]. ولذلك نرى الولايات المتحدة، تطوق المنطقة بقواعدها العسكرية وأساطيلها الحربية بدعوى تأمين مصالحها المتمثلة في استمرار تدفق النفط وتأمين العبور في مضيق هرمز[11]. وتحرص أمريكا وحلفاؤها الغربيون على جعل هذه المنطقة سوقاً لشراء منتجاتها من الأسلحة والعتاد الحربي والسلع الأخرى.

وتؤكد المصادر أن ما تشهده منطقة الخليج العربي في هذه الأيام من حشد للقوة من قبل أمريكا وبريطانيا على وجه التحديد إنما يندرج تحت المخطط الرامي إلى الهيمنة على مقدرات هذه المنطقة الهامة من العالم[12]. ويؤكد مايكل أرماكونت مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشئون السياسية السابق، أن المصالح الأمريكية في الخليج تتلخص في ضمان استمرار تدفق البترول عبر مضيق هرمز، وحرية الملاحة الدولية في هذا المضيق، وتعزيز الثقة بالولايات المتحدة بين زعماء المنطقة كصديق يعتمد عليه. وبالفعل استطاعت أمريكا أن تحل محل بريطانيا لملء ما سمي بالفراغ الأمني عقب انسحاب بريطانيا من المنطقة في عام ١٩٧١م، وأن تحافظ على استمرار تدفق البترول وحرية الملاحة في مضيق هرمز[13].

ثانيا: أهمية مضيق هرمز للملاحة الدولية

تعود أهمية مضيق هرمز إلى كونه المنفذ البحري الوحيد لمعظم دول الخليج إلى العالم الخارجي، فعن طريقه تتم عمليات التصدير والاستيراد، وهو بذلك يماثل أهمية مضيق باب المندب البوابة الجنوبية للبحر الأحمر إلى العالم إن لم يزد عليها ونظراً لما يشكله هذا المضيق من أهمية استراتيجية وسياسية واقتصادية، فقد تطلعت الدول الأجنبية منذ عهد قديم للسيطرة عليه وفرض الهيمنة على المنطقة[١٤] . وقد سمي هذا المضيق بمضيق هرمز The strait of Hurmus نسبة إلى جزيرة هرمز الواقعة على ساحل مكران وعلى ضفاف نهر ميناب التابع لإيران حالياً، مما يعطي الإيرانيين أرضية استراتيجية هامة في الإشراف والتحكم في مضيق هرمز وذلك إلى جانب سلطنة عمان . وجزيرة هرمز أو جرون هي جزيرة صغيرة تقع في مدخل الخليج ويبلغ طولها ٩ كيلومترات وعرضها ٨,٥ كيلومتر، ويحدها من الجنوب الشرقي جمبرون Gumbrun أو بندر عباس، ومن الجزر التي تقع بالقرب من مضيق هرمز، جزيرة قشم أو ديراز وتبعد خمسة أميال عن هرمز، وهناك عدة جزر هامة مثل لارك Larak إلا أن أهمية هرمز تأتي في الأولوية من حيث الأهمية الاستراتيجية حيث توجد حولها تحصينات طبيعية أمّنت ملجأ للتجار أدى إلى شهرتها كمركز تجاري في الخليج[١٥] .

وتعتبر محافظة مسندم العمانية من المناطق الهامة حيث تقع إلى الشمال الغربي من خليج عمان، عند المدخل الجنوبي لمضيق هرمز، ولذلك كان أول عمل قام به القائد البرتغالي البوكيرك هو احتلال هذه المحافظة وبعدها احتل هرمز وجزيرة قشم .

وطول مسندم ميلان وعرضها من ناحية الجنوب نصف ميل[١٦] . ومن الجزر العمانية الواقعة عند مدخل الخليج جزيرة الغنم، وقد حاول الشاه محمد رضا بهلوي، احتلالها للتحكم في المضيق، لكن أهل عمان تصدوا لقواته وحالوا دون تحقيق مأربه، وأصبحت

اليوم قاعدة بحرية عمانية تشرف على بوابة الخليج[١٧] .

وتعتبر جزيرة سلامة من الجزر العمانية الهامة أيضاً وتقع عند مضيق هرمز، ويوجد بها الفنار الذي يرشد حركة الملاحة في المضيق، وتشرف على الفنار شركة بريطانية هي ميناس Menas ومقرها البحرين . وقد استخدمت الجزر العمانية من قبل القوات البريطانية خلال الحربين العالميتين[١٨] . كما أن الجزر الإماراتية الثلاث التي احتلتها إيران عام ١٩٧١م، تقع عند مدخل مضيق هرمز[١٩] .

وقد اشتهر مضيق هرمز باسم باب الشرق السحري، وهو يعد واحداً من أهم أحد عشر مضيقاً من بين ١٢٠ مضيقاً في العالم[٢٠] . والمضايق الهامة هي : فلوريدا، ودوفر، وساجدات، وموزمبيق، وباب المندب، وجبل طارق، وملقة ولومبوك، ولوزون، والبوسفور، والدردنيل . ويبلغ طول مدخل الخليج ابتداءً من مسندم حتى جزيرة لارك ٣٢ ميلاً بحرياً[٢١] .

ويبلغ طول الخط من رأس (دبة) العمانية إلى (دماغة كوه) الإيرانية، حوالي ٥٢,٥ ميل بحري . وهذا يشكل الحدود الشمالية لخليج عمان أو المدخل الجنوبي لمضيق هرمز .

ويضيق المضيق إلى أن يصل ٢١ ميلاً بحرياً بين جزيرة لارك على الجانب الإيراني وقوين على الجانب العماني . ويبلغ طول المضيق بمحاذاة خط الوسط حوالي ١٠٤ أميال بحرية . ويبلغ عمقه الأدنى ٥٤ قدماً[٢٢] . ويبلغ عرض منطقة الفصل في مضيق هرمز ميلاً واحداً، ويمر فيها خطان ملاحيان أحدهما يتجه إلى الشرق والآخر يتجه إلى الغرب .

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار ضيق منطقة الفصل وإحجام الناقلات الضخمة عن عبور هذه الخطوط تبين لنا بوضوح خطورة الملاحة في المضيق، وتتضاعف احتمالات الخطر بضعف الرؤية السائدة في أغلب الأحيان . ولكن رغم بعض الحوادث التي تتعرض لها السفن في مياه الخليج فإن التقارير تشير إلى أن الخليج يعتبر من أسلم البحار للملاحة، ويعود ذلك إلى عدة عوامل منها : مياهه الصافية، ورياحه الهادئة، ووجود بعض الإرشادات الملاحية مثل العوامات المضيئة، والمنارات على الشواطئ،

وأجهزة الرادار واللاسلكي وإن كانت هذه الإرشادات غير كافية[٢٣] .

وبحكم ارتباط مضيق هرمز بالبحر الأحمر، نجد أن عرض الأول، أي مضيق هرمز أكثر اتساعاً من عرض مضيق باب المندب بوابة البحر الأحمر، فإذا كان الأول يتراوح اتساعه بين ٥٢ ميلاً و٢١ ميلاً بحرياً فإن باب المندب الذي ينقسم إلى ممرين يتراوح عرضهما بين ٢٥ ميلاً و١٢ ميلاً بحرياً[٢٤] .

ومع أهمية مضيق هرمز - بوابة الخليج إلى العالم، لجميع الدول الخليجية إلا أن درجة أهميته تتفاوت من دولة إلى أخرى . فهو يشكل أهمية أكبر لقطر والبحرين والكويت والعراق، في حين أن بقية الدول لها منافذ أخرى فالسعودية لها منفذ على البحر الأحمر، وسلطنة عمان لها منفذ على بحر العرب، والإمارات العربية المتحدة لها منفذ على خليج عمان في إمارة الفجيرة، حيث أقيم فيها ميناء خور فكان، ليكون بديلاً للإمارات لتصدير نفطها في حالة إعاقة الملاحة في مضيق هرمز، كما أن لإيران أجزاء تمتد إلى خليج عمان على بحر العرب[٢٥] . ونظراً لأهمية مضيق هرمز لدول العالم ولو بصورة متفاوتة حسب تأثيره على مصالحها الاقتصادية والسياسية فقد أصبحت مسألة المحافظة على أمن الملاحة فيه مسألة ضرورية تهم الجميع[٢٦] .

وقد قامت بريطانيا التي سيطرت على الخليج العربي منذ منتصف القرن السابع عشر، وبالذات في عام ١٨١٩، بوضع مبادئ خاصة بالخليج منها :

١ - احترام الأوضاع الداخلية لإمارات الخليج العربي .

٢ - أن تقوم السلطة البريطانية، بتفتيش جميع السفن الداخلة والخارجة عبر مضيق هرمز مهما كانت جنسيتها . وصرح وزير خارجيتها بالمرستون، في مستهل عام ١٨٣٨م قائلاً : "إن مهمتنا في الخليج هي وضعه تحت سيطرتنا البحرية بعيداً عن نفوذ أية دولة أخرى تستطيع منازعتنا هذه السيطرة"[٢٧] .

ويمكن القول أن أهمية مضيق هرمز في وقتنا الحاضر ترجع إلى أن معظم اقتصاد العالم يعتمد على نفط الخليج العربي، حيث تمر عبره ناقلات نفط المنطقة إلى الدول المستهلكة . وتشير بعض التقارير أن عدد السفن التي عبرت مضيق هرمز ٤٠٠ سفينة في اليوم

الواحد، خلال عام ١٩٨٧م . وهذا الرقم يعني عبور سفينة واحدة كل ٣,٨ دقائق[٢٨] . كما أنه يدل على أن معظم نفط الخليج العربي ينقل بوساطة ناقلات النفط عبر هذا المضيق[٢٩] . وتعود زيادة عدد السفن العابرة للمضيق إلى احتياجات الدول الصناعية والنامية لنفط المنطقة . وتعد اليابان في مقدمة الدول المستوردة حيث تستورد ٩٠٪ من احتياجاتها النفطية من منطقة الخليج، وتليها أوروبا ٧٠٪ من احتياجاتها، ثم الولايات المتحدة، والصين، والهند وبقية الدول النامية .

والجدير بالذكر أن احتياطي النفط في دول الخليج وصل في عام ١٩٩٣م إلى أكثر من ٧٠٪ من الاحتياطي العالمي[٣٠] . وفي ضوء العلاقة المتبادلة بين مكانة الثروة ومكانة مضيق هرمز يمكن ملاحظة أن ثلثي إمدادات العالم من النفط مرت عبر هذا المضيق عام ١٩٧٨م .

وهو ما أدى بالتالي إلى زيادة النمو والتطور في دول المنطقة وزيادة التبادل التجاري[٣١] . ومن المعلوم أن العوائد النفطية تشكل العمود الفقري لمشاريع وأنشطة التنمية الاقتصادية لدول الخليج العربي . ومن هنا تبين لنا أن أمن الملاحة في مضيق هرمز، بقدر ما يهم دول الخليج يهم بقية دول العالم، للأسباب الاقتصادية والتجارية والعسكرية . ومن هذا المنطلق لا يمكن للأسرة الدولية أن تسمح لأي جهة ما أن تهدد مصالحها في الخليج العربي[٣٢] .

ثالثاً: مضيق هرمز وقانون البحار

من دراسة الوضع الجغرافي لمضيق هرمز تبين لنا أنه ممر مائي طبيعي ضيق يقع بين إقليم دولتين هما : سلطنة عمان، وإيران، وأنه يصل بين جزئين من البحار العالية وهما مياه الخليج العربي ومياه خليج عمان أو بحر العرب . وقد ذهبت محكمة العدل الدولية إلى اعتبار مضيق هرمز ممراً دولياً إذ أنه موصل لجزئين من البحار العالية . والمضيق الذي يهتم به القانون الدولي يجب أن تتوافر فيه ثلاثة شروط وهي :

١ - أن يكون ممرا طبيعياً ضيقاً .

٢ – أن يصل بين بحرين .

٣ – أن يكون مستخدماً للملاحة الدولية عادةً .

وهذه الشروط كما يتضح لنا تنطبق على مضيق هرمز، بحيث تعطيه الصفة الدولية، وأن يخضع لقواعد القانون الدولي .

والممرات المائية إما أن تكون طبيعية مضايق Straits، وإما قنوات صناعية Channels، ومضيق هرمز يتصل بالخليج والمحيط الهندي، ولذا فهو مضيق طبيعي، ينطبق عليه القانون الدولي في حرية الملاحة لجميع السفن . وذلك بعكس قناة السويس مثلاً التي تم حفرها[٣٣] . ومضيق هرمز يربط بين الخليج العربي وهو بحر شبه مغلق وبين خليج عمان وهو بحر مفتوح . ويعني مصطلح البحر المغلق أو شبه المغلق، خليجاً أو حوضاً أو بحراً تحيط به دولتان أو أكثر ويتصل بالبحار المفتوحة . وعليه فإن الخليج العربي يعتبر بحراً شبه مغلق منفذه الوحيد إلى العالم طريق مضيق هرمز، وهذا الوضع يعطيه كما أسلفت الصفة الدولية[٣٤] .

وقد قامت المنظمة البحرية الاستشارية بين الحكومات (الامكو) بتحديد الممرات الملاحية في الخليج في ثلاث مناطق رئيسية وهي : منطقة مضيق هرمز، ومنطقة جزر الطنب ومنطقة رأس تنورة . وعلى هذا الأساس لابد أن تخضع الملاحة في مضيق هرمز لقاعدة حق المرور الحر[٣٥] . وفي عام ١٩٥٨، عقد المؤتمر الأول لقانون البحار، في مدينة جنيف عاصمة سويسرا . أما المؤتمر الثاني لقانون البحار التابع للأمم المتحدة، فقد عقد في ١٩٦٠م، وكانت إيران وسلطنة عمان من بين الدول التي شاركت في هذين المؤتمرين . وقد رفضت إيران الموافقة على الفقرة ٤ من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف لعام ١٩٥٨م، التي تقضي بوجوب عدم وقف المرور البري للسفن الأجنبية في المضايق الدولية بين جزء من البحر العالي وجزء آخر من البحر الإقليمي لدول أجنبية . فمن وجهة النظر الإيرانية يجب أن يكون الجزء الضيق من مضيق هرمز، ضمن المياه الإقليمية المتداخلة للدول المطلة عليه[٣٦] .

وخلال مناقشات المؤتمر الثالث لقانون البحار المنعقد في كراكاس عاصمة فنزويلا في يوليو ١٩٧٤م ركز المندوب الإيراني في مشاركته على محورين أساسيين هما :

١ - إقرار نظام المرور البري للملاحة في المضايق الدولية .

٢ - عقد اتفاقية إقليمية تضع نظاماً للملاحة في مضيق هرمز بصفة خاصة والخليج بصفة عامة .

وطالب المندوب الإيراني بأن تكون لبلاده مكانة خاصة في مضيق هرمز . ومن جهة أخرى طالب مندوب سلطنة عمان في المؤتمر نفسه، بإفراد المضايق الدولية بنظام خاص بها لأنها على حد قوله تعد جزءاً من المياه الإقليمية وما يطبق على المياه الإقليمية يطبق عليها[٣٧] .

وقد رفضت دولة الإمارات العربية المتحدة، والعراق، إعطاء إيران ميزة خاصة في مضيق هرمز . وقال مندوب الإمارات في مؤتمر كراكاس : "ينبغي أن تتسم الملاحة عبر المضايق الدولية بما فيها مضيق هرمز، بالحرية التامة ودون تمييز بين السفن التجارية أو الحربية" . أما مندوب الكويت فقد قال : "إن حرية مرور السفن التجارية وناقلات النفط عبر المضايق المستخدمة للملاحة الدولية يجب أن تؤمَن في كافة الأوقات، ولكن يجب أن تستخدم معايير مختلفة بالنسبة للسفن الحربية . وهذا الموقف الكويتي يتفق مع الموقف الإيراني الذي يطالب بالتمييز بين السفن التجارية وبين السفن الحربية التي تعبر المضيق[٣٨] . ووفقاً للمادة ٣٨ من الاتفاقية الدولية لقانون البحار التي تم اعتمادها من الدول المطلة على البحار والمضايق في ٣٠ أبريل ١٩٨٢م، فإن جميع السفن العابرة للمضايق الدولية بما فيها بالطبع مضيق هرمز، سواء أكانت هذه السفن تجارية أو حربية تتمتع بحق المرور العابر دون تمييز . كما يحق كذلك للطائرات العبور فوق هذه المضايق . وتفسير المرور العابر هو أن تمارس السفن حرية الملاحة عبر المضايق البحرية ولا تمنع من دخول الموانئ للدول الساحلية بشرط مراعاة الدخول إلى تلك الدول، والامتناع عن أي تهديد بالقوة أو استعمالها ضد سيادة الدولة أو الدول الساحلية المطلة على المضيق أو تهديد سلامتها الإقليمية، وأي مخالفة في هذا الشأن تعد انتهاكاً لمبادئ القانون الدولي وتعاقب عليه . أي أنه يجب على السفن المارة وكذلك الطائرات العابرة في الجو أن تمتثل للأنظمة والإجراءات المعمول بها للسلامة في البحر والجو . وبالمقابل تتعرض الدولة أو الدول المطلة على المضيق أو الساحل للمسئولية الدولية في حالة

إعاقتها للملاحة في هذه الممرات المائية الدولية[٣٩] .

وتتلخص مخاطر الملاحة في خليج هرمز في الآتي :

١ - نشوب حرب إقليمية أو بين دول المنطقة ودول أجنبية .

٢ - إمكان تعرض ناقلات النفط لعمليات مسلحة سواء من البر أو البحر .

٣ - خطر الغواصات التي في وسعها التحرك في مياه الخليج في سرية تامة ، وهو ما يشكل تهديداً للملاحة الدولية .

وبما أن مضيق هرمز ، يشكل الممر الرئيسي لناقلات النفط والغاز ، وللسفن التجارية ، فإن إغلاقه سيلحق ضرراً جسيماً بالاقتصاد العالمي . ونظراً لهذه الأهمية التي يتمتع بها هذا المنفذ البحري ، تحرص الأمم المتحدة والدول الكبرى على ضمان سلامة الملاحة فيه وعدم تعرضه لأية مخاطر[٤٠] .

رابعًا: أمن الخليج العربي بعد ١٩٧١م

يقصد بكلمة الأمن الطمأنينة وأمن المواطن على نفسه وماله ، والأمن الداخلي للدول . ومنذ أن أعلنت بريطانيا عن نيتها الانسحاب من الخليج العربي مع نهاية عام ١٩٧١م ، بدأ الحديث عن الأمن الإقليمي لدول المنطقة ، وضرورة توفير الحماية العسكرية لسلامة مرور السفن عبر مضيق هرمز .

والأمن الإقليمي اصطلاح حديث برز ما بين الحربين العالميتين ، ليعبر عن سياسة مجموعة من الدول تنتمي إلى إقليم واحد تسعى من خلال التعاون العسكري فيما بينها إلى منع أية قوة خارجية من التدخل في ذلك الإقليم . ومن هذا المنظور يمكن أن ننظر إلى أمن الخليج العربي باعتباره أمناً إقليمياً بمعنى أنه يخص مجموعة من الدول المتجاورة ضمن إقليم واحد[٤١] . وكانت بريطانيا هي أول من ابتدع اصطلاح أو مفهوم أمن الخليج في عام ١٩٤٧م ، وكان المقصود به أمن الوجود البريطاني والمصالح البريطانية في الخليج العربي ، عقب خروجها من الهند[٤٢] .

ويصف (فيرجريف) منطقة الخليج العربي بقوله : "إنها منطقة انتقال تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة، وهي استراتيجياً جبهة تصادم فيما إذا حدثت بين القوى"[٤٣] .

وفي ١٦ يناير ١٩٦٨م، أعلن رئيس وزراء بريطانيا هارولد ويلسون، أمام مجلس العموم البريطاني، عزم حكومته سحب قواتها العسكرية من منطقة الخليج العربي، وأن الوجود العسكري البريطاني سينتهي مع حلول عام ١٩٧١م .

ومن منطلق أهمية أمن المنطقة من وجهة نظر زعماء الخليج العربي، ولضمان سلامة أراضيها ووحدة كياناتها الإقليمية والحفاظ على ثرواتها الوطنية والاستقلال السياسي، بادر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم إمارة أبوظبي حينذاك إلى الاجتماع بحاكم إمارة دبي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم يوم ١٨ فبراير ١٩٦٨م، في مدينة دبي، ووقع الطرفان اتفاقية اتحادية مهدت إلى اجتماع موسع ضم إلى جانب حكام إمارات الساحل الست، قطر والبحرين، وذلك يوم ٢٧ فبراير ١٩٦٨م، وفي ختام اجتماعاتهم تم التوقيع على اتفاقية تقضي بتوحيد الإمارات الثماني، ويسمى اتحاد الإمارات العربية . وأشار البيان المشترك إلى أن من أهداف هذا الاتحاد تدعيم الدفاع الجماعي عن بلدانه صيانة لأمنها واستقرارها"[٤٤] . ومن جانب آخر، بدأت الحكومة الإيرانية عقب إعلان بريطانيا الانسحاب من منطقة الخليج العربي، تكثيف تصريحاتها ومزاعمها أن لها حقوقاً إقليمية في المنطقة . وأخذت الصحف الإيرانية تشن حملة مكثفة على عروبة الخليج وعلى المساعي التي تبذلها دول المنطقة لإنشاء اتحاد فيما بينها . ورداً على الادعاء الإيراني، أدلى الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بحديث لصحيفة النهار في مايو ١٩٦٨، أكد فيه على عروبة الخليج ومسئولية الدول العربية في حفظ الأمن والاستقرار في المنطقة وتأمين سلامة الملاحة في مضيق هرمز . وقال : "إننا لا ننكر أن لإيران مصالح في الخليج ولكن يجب ألا تكون على حساب مصالح دول الخليج العربية والأمة العربية بصفة عامة"[٤٥] .

وكان الشاه يرى أن إيران الدولة الوحيدة في المنطقة التي تملك من

الطاقة البشرية والاقتصادية ما يؤهلها للحفاظ على أمن الخليج، وصرح بهذا الخصوص لجريدة التايمز اللندنية في عددها الصادر في ١٤ أبريل ١٩٧٠م قائلاً : "إنه قد بدأ عصر جديد للخليج وإن إيران ترى أن مصالحها الحيوية تحتم عليها حفظ الأمن والاستقرار به، وإن بعض الجزر المملوكة حالياً لبعض المشيخات تهم إيران من الناحية الاستراتيجية، وإنها تابعة لإيران أصلاً وهي جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبوموسى، وأن إيران غير مستعدة إطلاقاً أن ترى سقوط هذه الجزر في يد أعدائها"[٤٦] . وقد قامت إيران، عشية انسحاب القوات البريطانية من الخليج سنة ١٩٧١م، باحتلال الجزر الإماراتية الثلاث الآنفة الذكر، وذلك في محاولة منها للسيطرة على مضيق هرمز، متجاهلة في ذلك حقوق بقية دول المنطقة . ولم تبد بريطانيا والولايات المتحدة أية معارضة على ما أقدم عليه الشاه، بل أعلنت أمريكا عن تأييدها لسياسة إيران في الخليج العربي . وهذا الموقف الأمريكي المتحيز إلى جانب الشاه، لا غرابة فيه إذا علمنا أن الإدارة الأمريكية كانت تعتبر شاه إيران، شرطي الحراسة للمصالح الغربية في المنطقة ضد الأطماع الروسية . وشجع هذا الموقف الأمريكي البريطاني، الشاه، على نقل قواته البحرية من عبادان إلى بندر عباس القريبة من مضيق هرمز، كما قام الشاه، بإنشاء القاعدة البحرية في (بهار) على ساحل البحر العربي حتى يمكن تطويق المنطقة"[٤٧] . ولقد صرح الشاه والمسئولون الإيرانيون في أكثر من مناسبة أن هدف إيران هو التحكم في مضيق هرمز . فهذا الشاه محمد رضا بهلوي، يقول، إن تدخل قواته إلى جانب السلطان قابوس، للقضاء على ثورة ظفار، المدعومة من الشيوعية، لم يكن لأسباب عقائدية ولكن كما قال لأسباب أمنية، موضحاً تلك السياسة بقوله : "لنضع الخريطة أمامنا ونتكلم - هذا هو خليج هرمز مخرجي إلى المحيط . . إلى العالم . . هو معبر البترول الإيراني كله . فهل تظن أنني أسمح لنظام معادٍ لي أن يقوم على الشاطئ الغربي للخليج، أنا أقولها بوضوح لا أقبل بل لا أحتمل . المضيق شريان الحياة لبترول إيران، وبترول إيران حياة لنا"[٤٨] . وفعلاً سعت إيران جاهدة للسيطرة على هذا الممر المائي الهام، غير أنه من الملاحظ أن ارتباط الشاه الراحل، مع الإدارة الأمريكية جعل

إيران تساير السياسة الأمريكية التي تطالب بحرية الملاحة في جميع المضايق الدولية والانصياع لهذه المطالب[49] .

ويذكر رمضاني، أن إيران سعت إلى قيام دفاع مشترك مع دول الخليج العربي ولكن بعد أن فشلت إيران في ذلك لجأت إلى احتلال الجزر الثلاث بقصد الإشراف على المضيق ومنع أية قوة أجنبية من السيطرة عليه . ويزعم رمضاني، أنه كانت هناك محاولة لتشكيل حلف عربي ضد إيران، يهدف إلى إيجاد طريقة لضمان المرور عبر مضيق هرمز دون أن يكون لإيران اليد فيها . وأن هذه الفكرة جاءت بعد اتفاقية الحدود البحرية بين إيران وسلطنة عمان، عام ١٩٧٤م، إلا أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب اختلاف وجهات النظر مع بقية زعماء الخليج العربي من إيران . وكانت سلطنة عمان قد وقعت مع إيران في السابع من مارس ١٩٧٤م، اتفاقية للتعاون بين البلدين في المجالات المختلفة وبخاصة في الحفاظ على أمن واستقرار وسلامة الملاحة في مضيق هرمز[50] .

وكان لقاء الدمام في ديسمبر ١٩٧٤ من أوائل المؤتمرات الخليجية . وقد وجهت الدعوة لحضور هذا المؤتمر إلى زعماء دول المنطقة بما فيهم اليمن (الشمالي) . وقد اعتذرت عن عدم حضور هذا المؤتمر كل من اليمن والكويت وسلطنة عمان . ولكن على الرغم من ذلك، فقد توالت الاجتماعات بين زعماء الخليج العربي إلى أن كللت جهودهم بتأسيس مجلس التعاون لدول الخليج العربية الست في مدينة أبوظبي في ٢٥ مايو ١٩٨١م . ودون شك فإن الدافع الأمني كان وراء فكرة إنشاء المجلس، إلا أنه يمكن القول بصراحة إن هذه لم تتوصل على الصعيد العملي إلى بلورة صياغة استراتيجية موحدة لأمن المنطقة وذلك بسبب اختلاف وجهات النظر حول هذه القضية الحيوية[51] .

ولكن المحاولات للتوصل إلى صيغة موحدة لمسألة أمن المنطقة ما تزال تشغل قادة دول الخليج العربية . وقد طرحت السعودية، على هامش مؤتمر القمة الإسلامي الذي عقد في جدة في سنة ١٩٧٥م، مشروعاً لأمن الخليج العربي، ينص على ضرورة المحافظة

على أمن المنطقة وعلى الأنظمة القائمة وعدم التدخل في شئون الغير . وقد رفضته إيران التي اعتبرت المشروع تهديداً موجهاً لها . وفي عام ١٩٨٠م، تقدمت السعودية بمشروع آخر لأمن الخليج مكون من خمس نقاط، نصت النقطة الخامسة منه على رفض إقامة أية تحالفات عسكرية في المنطقة[٥٢] .

وقال السلطان قابوس، إن دول الخليج بدأت تتفهم بصورة أفضل وأعمق حقيقة الأخطار التي تهدد أمن المنطقة وسلامة الملاحة في مضيق هرمز . وأضاف قائلاً : "إذا لم نكن عند المستوى المطلوب منا للحفاظ على هذا الممر الحيوي الذي يهم معظم دول العالم، فإن ذلك سيكون مبرراً لتدخل الدول الكبرى وفرض هيمنتها على دول المنطقة، بدعوى الحفاظ على مصالحها، وتأمين استمرار الملاحة في المضيق" . وأكد أن عمان تقدمت بمشروع لدول الخليج العربي يقضي برصد ميزانية خاصة لحماية الملاحة في مضيق هرمز، حتى لا يكون مبرراً للتدخل الأجنبي في المنطقة، ولكن الاقتراح لم يلق استجابة حتى الآن[٥٣] . كما تقدمت سلطنة عمان بمشروع آخر إلى مؤتمر مسقط في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٦ الذي عقد تحت شعار حماية ممرات الخليج . وكان المشروع المقترح يدعو إلى تحالف إقليمي دفاعي يضم الدول المطلة على الخليج بما فيها العراق وإيران . كما يضم في عضويته الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا وألمانيا، واليابان . ولكن هذا المشروع رفض من قبل معظم دول المنطقة، على اعتبار أن ذلك سيؤدي إلى دخول المنطقة في حلف استعماري جديد وهو مخل بالسيادة الوطنية لدول الخليج العربية، ويعرض أمنها واستقرارها لمخاطر جسيمة وذلك لعدم تكافؤ القوى[٥٤] . وكان مفهوم دولة الإمارات العربية المتحدة لأمن الخليج العربي ينطلق من تأكيدها على ضرورة السعي لضمان حرية الملاحة في مضيق هرمز، ورفضها للأحلاف العسكرية، وترى أن المنطقة يجب أن تكون منطقة سلام بعيدة عن الصراع الدولي .

أما الكويت وقطر والبحرين، فقد كانت ولا تزال تسعى إلى توحيد الآراء حول مفهوم أمن الخليج الذي يجنب المنطقة وشعوبها المخاطر والنزاعات[٥٥] .

وفي مطلع عام ١٩٧٩، تقدمت سلطنة عمان، بمشروع جديد لأمن

الخليج لا يختلف عن المشروع الأول الذي تقدمت به عام ١٩٧٦، حيث يدعو هذا المشروع الجديد إلى مشاركة الدول المطلة على الخليج بالإضافة إلى مشاركة الولايات المتحدة وبقية الدول الغربية واليابان، للحفاظ على أمن الملاحة في مضيق هرمز، وأمن المنطقة، على اعتبار أن الخطر الذي يتهدد الخليج يأتي من الاتحاد السوفييتي. وقد تحفظت بقية دول الخليج العربية على المشروع، بينما رفضه العراق صراحة، بحجة أن مشاركة الدول الغربية يهدد أمن وسلامة واستقلال دول الخليج بصورة عامة[٥٦].

وفي الواقع فإن دول الخليج العربي تفضل الاعتماد على إمكانياتها العسكرية في الدفاع عن كياناتها وفي تأمين حرية المرور في مضيق هرمز إلا أن هناك إدراكاً عاماً لدى قادة الخليج العربي، بأنه من المتعذر في الوقت الحاضر قيام قواتها المسلحة بهذه المهمة[٥٧]. ومما هو معلوم عند الجميع أن إنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية كان في مقدمة أهدافه التعاون الأمني بين دوله. وقد جرت أول مناورة عسكرية مشتركة لدول المجلس في ١٥ أكتوبر ١٩٨٣، في دولة الإمارات العربية المتحدة، وأطلق عليها (درع الجزيرة). وقد توالت المناورات والتمارين العسكرية بين دول المجلس. وفي كل قمة من قمم دول المجلس، يؤكد الأعضاء على أن أمن الدول الأعضاء كل لا يتجزأ. ويعني ذلك التضامن فيما بينهم عند تعرض أي منهم لأي اعتداء يهدد سلامتها وسيادتها[٥٨].

وهناك احتمال وقوع نزاع بين دول الخليج العربي وبين إيران، بسبب احتلال الأخيرة لجزر الإمارات، والوجود العسكري الإيراني في مضيق هرمز، والاختلافات السياسية تجاه إسرائيل وأسعار النفط. وفي كافة الاحتمالات فإن هذه النزاعات الإقليمية ستؤدي إلى تهديد سلامة الملاحة في مضيق هرمز، وستكون هذه النزاعات مبرراً كافياً لتدخل الولايات المتحدة والدول الغربية والدول ذات المصالح في المنطقة.

ويرى رمضاني، أن أمريكا ستحرص على المصلحة القومية الأمريكية في الخليج العربي على المدى البعيد، وبالتالي ستعمل على إقامة نظام إقليمي يضم الخليج العربي وبعض الدول العربية وإسرائيل، وإحلال السلام بين

العرب والدولة العبرية، لمنع حدوث أي حرب تؤثر على استمرار تدفق النفط من الخليج إلى العالم، أو تعرض مضيق هرمز للإغلاق. حيث لن يكون بمقدور أمريكا أو أية دولة أخرى تلبية الحاجة العالمية من النفط إذا ما تم إغلاق صمام أمان العالم في مضيق هرمز، ومنع تدفق نفط الخليج(٥٩) . وعلى ضوء هذه الأهمية لمنطقة الخليج العربي فإن زعماء الخليج ودول العالم ستعمل على الدوام على تأمين المنطقة وسلامة الملاحة في مياه الخليج العربي، وبوابته مضيق هرمز .

خامساً: الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) وأثرها على أمن الملاحة في مضيق هرمز والخليج العربي

انفجرت الحرب بين العراق وإيران في ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠، وقد كان لهذه الحرب انعكاساتها على أمن الملاحة ومنطقة الخليج العربي عموماً، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن متغيرات دولية وإقليمية وأخرى داخلية عملت على تفجيرها، وعمدت إلى استمرارها، وفجأة وجدت دول الخليج العربية نفسها في قلب الصراع الدولي(٦٠) . ووجهت إيران في بداية الحرب تحذيراً من أن أي دولة خليجية تسمح باستخدام مطاراتها أو موانئها لشن هجمات ضد الأراضي الإيرانية ستكون عرضة لهجوم إيراني مضاد . كما هددت إيران بتدمير آبار نفط الدول الخليجية التي تقدم للعراق مساعدات مالية، وهددت كذلك بإغلاق مضيق هرمز أمام الملاحة الدولية . وبالفعل لجأت إيران إلى فرض الحصار البحري على جميع السفن المتوجهة إلى العراق عبر مضيق هرمز(٦١) . وقد استبعد السلطان قابوس، إقدام إيران على إغلاق المضيق، قائلاً : "لا أعتقد أن الإيرانيين سوف يتخذون قرارات عشوائية، وأن كلاً من العراق وإيران يهدد الآخر، العراق يهدد بتدمير منشآت النفط الإيرانية، وإيران تهدد بإغلاق مضيق هرمز . وعن التدخل الأمريكي إذا ما أغلق المضيق، قال : "التدخل الأمريكي وارد . وقد قلنا نحن في عمان إن مسئولية حماية المضيق هي

مسئولية خليجية جماعية، وإن هذه البقعة من الأرض أي مضيق هرمز، هي أكثر أهمية لبقية دول الخليج مما هي لنا، ولكنها جزء من بلادنا"[٦٢]. ومن ناحية أخرى، أعلن وزير خارجية السعودية، سعود الفيصل تأييد بلاده للعراق في حربه مع إيران وقال: "العراق عضو في الجامعة العربية ونحن كذلك، ومن الطبيعي أن تؤيد دولة عربية دولة عربية أخرى"[٦٣].

وتتفق المصادر الخاصة بتاريخ الخليج العربي المعاصر، أن الحرب العراقية – الإيرانية، كانت أحد العوامل الأساسية في قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية في ٢٥ مايو ١٩٨١م. وكان في مقدمة أهداف المجلس، التعاون الأمني بين دوله، وذلك على اعتبار أن أمن المنطقة من مسئولية دولها[٦٤]. وإزاء التهديد الإيراني لدول مجلس التعاون بإغلاق مضيق هرمز، حذر وزير الدولة العماني للشئون الخارجية يوسف بن علوي، من أن بلاده تنظر في المشاركة في عمل عسكري مع دول أخرى إذا ما أقدمت إيران على إغلاق المضيق[٦٥].

ونظراً لأهمية مضيق هرمز وأمن المنطقة للاقتصاد العالمي نلاحظ أن الولايات المتحدة الأمريكية، كانت في مقدمة الدول التي أعلنت استعدادها للتدخل العسكري للحفاظ على سلامة الملاحة عبر مضيق هرمز، وأمن المنطقة ضد أي تهديد، وجاء ذلك الإعلان فور قيام الحرب العراقية الإيرانية، ففي ٢٥ سبتمبر ١٩٨٠، اجتمع الرئيس الأمريكي كارتر، مع أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، وبحث معهم الخطة العسكرية التي يجب اتخاذها لحماية المصالح الأمريكية وحلفائها الغربيين في الخليج. وبعد إقرار الخطة من قبل مجلس الشيوخ، وصلت بوادر تلك القوة التي كانت مرابطة في بحر العرب والمحيط الهندي إلى الخليج في ٣٠ سبتمبر ١٩٨٠ أي بعد أسبوع واحد من الحرب[٦٦] وأعلن وزير الدفاع الأمريكي هارولد براون قوله: "إذا انحصرت الحرب الدائرة بين العراق وإيران في الطرف الشمالي للخليج فإن ذلك لن يشكل خطورة على الملاحة في مضيق هرمز، أما إذا امتدت الحرب جنوباً فإنه من المتوقع أن تمارس القوة الأمريكية المرابطة في الخليج بعض الفعاليات

الحربية لضمان سلامة تدفق النفط إلى الغرب"[٦٧] .

وفي سنة ١٩٨٢، أنشأت الولايات المتحدة، قوات التدخل السريع لتدعيم الوجود الأمريكي في الخليج العربي . ووصل عدد أفراد هذه القوات إلى ٢٠٠ ألف رجل، مزودين بأحدث المعدات ووسائل الحرب العصرية، ترافقهم حاملات الطائرات، والغواصات المزودة بالصواريخ ورابطت هذه القوات في الخليج وبحر العرب، بالقرب من مضيق هرمز[٦٨] وأعدت أمريكا وبريطانيا وفرنسا خطة تتضمن الرد على أية محاولة من جانب إيران لإغلاق المضيق، والتعاون فيما بينهم لتطهير مياه الخليج من الألغام البحرية، وإعداد طرادات حربية مسلحة لمصاحبة ناقلات النفط في دخولها وخروجها من الخليج . وأعلن الرئيس الأمريكي ريجان، في مؤتمر صحفي في فبراير ١٩٨٤، أنه لا مناص للولايات المتحدة، من منع إيران من تنفيذ التهديد بإغلاق مضيق هرمز، باللجوء إلى الحل العسكري لملء الاستراتيجية الغائبة على حد تعبيره[٦٩] . ومن ناحية أخرى، وعقب تصاعد حدة التوتر في المنطقة وتكرار التهديدات الإيرانية بإغلاق مضيق هرمز أمام الملاحة الدولية، اجتمع مجلس الأمن الدولي مساء يوم ٣١ أكتوبر ١٩٨٣م، وأصدر بيانه رقم ٥٤٠ دعا فيه إيران والعراق إلى وقف إطلاق النار واحترام حرية الملاحة في المياه الدولية . وفي يناير ١٩٨٤، أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٥٥٢، دعا فيه مجدداً إيران والعراق إلى ضرورة احترام حرية الملاحة في مضيق هرمز وعدم القيام بأي عمل من شأنه أن يؤدي إلى عرقلة الملاحة في المضيق[٧٠] .

وقد بدأت حرب الناقلات في مياه الخليج في شهر مايو ١٩٨٤، حينما قامت الزوارق الحربية الإيرانية، بقصف ناقلات النفط الكويتية والسعودية، رداً كما زعمت إيران، على قصف العراق لناقلات النفط في مرفأ جزيرة خرج الإيرانية في فبراير ١٩٨٤، وفرض الحصار على هذه الجزيرة التي يتم عن طريقها تصدير حوالي ٩٠٪ من النفط الإيراني[٧١] .

واتهم الرئيس الإيراني هاشمي رافسنجاني، دول الخليج العربية بالوقوف إلى جانب العراق في الحرب، قائلاً : "إن دول الخليج متواطئة مع

العراق في حربه مع إيران، وإزاء ذلك فإن إيران ستلجأ إلى التصرف بحزم ضد هذه الدول ومنها، إغلاق مضيق هرمز، لتمنع دخول سفنها منطقة الخليج". وأعلن الرئيس رافسنجاني أكثر من مرة أن بلاده ستلجأ إلى حرمان دول الخليج من عائداتها النفطية عن طريق منع تصدير نفطها، ففي شهر مايو ١٩٨٧، قال: "إذا وجدت إيران نفسها عاجزة ذات يوم عن تصدير بترولها عن طريق الخليج، فسنمنع أية دولة أخرى من استخدام هذا الطريق المائي"[٧٢]. وكان عام ١٩٨٧، أكثر الأعوام التي تعرضت فيها ناقلات النفط والسفن التجارية في مياه الخليج للخطر، بسبب تعرضها للقصف الصاروخي، أو بسبب الألغام البحرية التي تذكر بعض المصادر أن إيران قامت بزرعها. وكانت ناقلات النفط السعودية (سي تريدر) التي كانت ترفع العلم الليبيري، وكذلك ناقلات النفط الكويتية، والسفينة الأمريكية (صامويل روبرتس) من بين السفن التي أصيبت بأضرار جسيمة من جراء تلك العمليات الحربية. وقد لجأت الحكومة الكويتية في سنة ١٩٨٧، إلى الولايات المتحدة طالبة حماية ناقلاتها وسفنها التجارية ضد الهجمات التي تتعرض لها من جانب القوات الإيرانية، مقابل قيام الكويت بتقديم بعض التسهيلات للقوات الأمريكية[٧٣].

وقد استجابت الإدارة الأمريكية فوراً للطلب الكويتي. وأعلن المتحدث الرسمي للبيت الأبيض في نهاية مايو ١٩٨٧، أن الرئيس ريجان، وافق رسمياً على دعم الحضور العسكري الأمريكي في الخليج العربي، وعلى حماية الناقلات الكويتية[٧٤]، وفي ٢٨ من مايو ١٩٨٧، أعلن وزير خارجية أمريكا، موافقة الإدارة الأمريكية، على إعادة تسجيل ناقلات النفط الكويتية. ومن ناحية أخرى، عكفت الإدارة الأمريكية على إعداد خطة لحماية الملاحة البحرية في الخليج من خلال زيادة قواتها البحرية إلى جانب حاملات الطائرات المتمركزة في خليج عمان، بالقرب من مضيق هرمز.

كذلك وافقت موسكو، على طلب دولة الكويت تأجيرها ناقلات نفط روسية تحمل العلم الروسي، ولكن هذه الإجراءات التي اتخذتها الكويت لحماية ناقلاتها، لم تمنع إيران، من مواصلة تهديداتها. فقد صرح الرئيس الإيراني بقوله: "إن الناقلات الكويتية المعاد

تسجيلها تقوم بنقل البترول العراقي، وطالما ظل البترول الإيراني تحت التهديد العراقي، فإن إيران لن تسمح للعراق بحماية بتروله عن طريق نقله بناقلات كويتية وسط حراسة أمريكية"[٧٥] . وبعد أن تصاعدت الحرب بحيث أصبحت تهدد الاقتصاد العالمي، أصدر مجلس الأمن الدولي قراره رقم ٥٩٨ في ٢٠ يوليو ١٩٨٧، دعا فيه العراق وإيران إلى الوقف الفوري للحرب، وضمان حرية الملاحة في مضيق هرمز ومياه الخليج، ولكن الجانب الإيراني رفض قرار مجلس الأمن، ولذلك فقد ظلت الملاحة في الخليج في خطر إلى أن توقفت الحرب في أغسطس عام ١٩٨٨، بعد قبول إيران قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ في ١٨ يوليو ١٩٨٨[٧٦] .

وإذا كان للولايات المتحدة في الحرب العراقية - الإيرانية، مواقف ظاهرة ومواقف خافية، فإن الروس الذين لهم أطماع في المياه الدافئة منذ زمن طويل كان لهم أيضاً مواقف في هذه الحرب . ففي ١٠ ديسمبر ١٩٨٠، أعلن الرئيس السوفييتي ليونيد بريجنيف، في خطاب له أمام البرلمان الهندي، عن مبادرة خاصة بأمن الخليج وأمن الملاحة في مضيق هرمز، تضمنت خمس نقاط أساسية، **النقطة الأولى** نصت على امتناع الدول الكبرى عن إقامة قواعد عسكرية في الخليج أو الجزر المتاخمة أو إرسال أسلحة نووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل إلى المنطقة . **النقطة الثانية**، نصت على عدم استخدام القوة أو التهديد بها ضد دول المنطقة والامتناع عن التدخل في شئونها الداخلية . أما **النقطة الخامسة والأخيرة**، فقد نصت على عدم خلق عوائق أو التهديد بإغلاق مضيق هرمز في وجه الملاحة الدولية . وقد لاقت هذه المبادرة السوفييتية قبولاً واستحساناً من قادة دول الخليج العربية .

وحينما تردد في وسائل الإعلام، أثناء الحرب العراقية - الإيرانية، التدخل الأمريكي الوشيك في الحرب، حذرت القيادة السوفييتية الولايات المتحدة من ذلك وإن كان من المستبعد في نظر المراقبين، أن تقدم روسيا على مواجهة عسكرية مع أمريكا وأوروبا الغربية، فيما لو تدخلت هذه الدول للحفاظ على أمن مضيق هرمز، إذ أن الروس، يدركون أهمية إمدادات الطاقة

من الخليج للغرب واليابان، والدول الأخرى المستوردة للنفط من المنطقة[٧٧].

وخلاصة القول، أن أمن مضيق هرمز وأمن الخليج العربي، من منظور قادة دول المنطقة، يتركز في ضرورة الالتزام بقانون البحار والمضايق الدولية، وحرية الملاحة في المضيق ومياه الخليج. وكذلك الحفاظ على أمن وسلامة واستقرار دول المنطقة وأنظمتها السياسية، وإبعاد المنطقة عن الصراعات الدولية. وهذا التوجه الخليجي يتفق وسياسة الدول المحبة للأمن والسلم الدوليين.

ودون شك فإن الدول المستوردة لنفط الخليج وفي مقدمتها اليابان وأوروبا الغربية والولايات المتحدة، تحرص على استمرار تدفق هذه المادة إليها وتأمين الملاحة، وإبعاد روسيا وأية قوىً أخرى عن المنطقة، والسعي إلى مزيد من التعاون مع أنظمتها السياسية وكسب ثقة قادتها بما يخدم مصالح الجميع.

الدكتور عبد القادر حمود القحطاني
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة قطر

الهوامش

١ – د. فاروق عمر : تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ط٢، الدار العربية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٦٤ .

٢ – أحمد العناني : جذور الحاضر الخليجي، المطبعة الوطنية، الدوحة قطر ١٩٨٣، ص ٧ .

٣ – د. محمد رشيد الفيل : الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي، ذات السلاسل، الكويت ١٩٨٨، ص ص ٣٤ – ٣٦ .

٤ – S.A. Morrison : Middle East, Survey, S.C.M. Press. L.t.d. London, 1954, P. 14.

٥ – مجلة النفط والتعاون العربي، المجلد ٤، العدد الأول ١٩٧٨، الكويت، حالة الملاحة في الخليج العربي، للدكتور أحمد علي سبيتي، وهيفاء جنيدي خلف الله، ص ١٢٨ . وانظر :

G. Marlowe. : The Persian Gulf in the Twentieth Century, London, 1962, pp. 239-240.

٦ – مجلة الوثيقة – العدد ١٤، السنة السابعة، يناير ١٩٨٩، يصدرها مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، بحث بعنوان : الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي في القرنين ١٦ و١٧، للدكتور محمد عارف الكيالي، ص ١٠٩ وما بعدها .

٧ – د. بدر الدين عباس الخصوصي : في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج٢، ط١، ذات السلاسل – الكويت ١٩٨٨، ص ص ١٠٥ – ١٠٨ .

٨ – P.R.O.F.O. 371/13070. July, 1928.

٩ – د. صباح محمود محمد : الصراع الجيوبولوتيكي في الخليج العربي، مطبعة السعدون – بغداد ١٩٨٦، ص ٤٥ .

١٠ – الخليج العربي والعالم الخارجي، صادر عن مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٧، ص ١٧٣ و ١٧٤ .

١١ – مركز دراسات الخليج العربي – جامعة البصرة، ١٩٨٧، بحث بعنوان : العلاقات الدولية والخصائص الجغرافية والسياسية لأقطار الخليج العربي – للدكتور عبد علي الخفاف، ص ٢٨٤ .

١٢ – صحيفة الوطن الكويتية – العدد (١٩١٢) الصادرة في ١٩٨٠/٢/٢٠ .

١٣ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٨٣، الكويت ١٩٩٦، أمن الخليج العربي – دراسة في الأسباب والمعطيات، للدكتور عبد الله العنزي، ص ٢٣٢ – ٢٣٣، ٢٣٧ .

١٤ – د. محمد نصر مهنا : الخليج العربي – التطورات الحديثة والمعاصرة، مطابع رويال – القاهرة، ١٩٩٦، ص ٤٤٧ – ٤٤٨ .

١٥ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ٥٦، أكتوبر ١٩٨٨، دول مجلس التعاون وسبل تفادي خطر إعاقة الملاحة في مضيق هرمز، للدكتورة صدقة يحيى فاضل، ص ١٤٩، ١٥٠ .

١٦ – مجلة الهلال – أكتوبر ١٩٩٠، زلزال في الخليج العربي، للأستاذ مصطفى نبيل، ص ص ٦٦ – ٨٣ .

١٧ – ج.ج. لوريمر : دليل الخليج – القسم الجغرافي، ج٢ وج٤، مطابع علي بن علي، الدوحة قطر ١٩٧٢، ترجمة ديوان أمير قطر، ص ٧٤٣، ص ١٦٢٥ .

١٨ – مجلة العربي الكويتية، العدد ٤٥١، يونيو ١٩٩٦، رأس مسندم –للدكتور محمد المنسي قنديل، ص ٤٤ – ٥٨ .

١٩ – د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم : السلام البريطاني في الخليج العربي – دار المريخ، الرياض ١٩٨١، ص ٣٠٥، ٣٠٦ . للمزيد أنظر : د. خالد العري : الخليج العربي في ماضيه وحاضره، مطبعة الجاحظ – بغداد ١٩٧٢، ص ٢٥١ .

٢٠ – R.R. Baxter. : The Law of International Water Ways, Harvard University Press, 1964, P. 2 .

٢١ – د. عبد الجليل زيد مرهون : أمن الخليج بعد الحرب الباردة، دار النهار – بيروت ١٩٧٩، ص ٥٣ – ٥٤ .

٢٢ – ر.ك. رمضاني، ترجمة : عبد الصاحب الشيخ : الخليج العربي ومضيق هرمز، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٤، ص ١٥، ١٦ .

٢٣ – مجلة النفط والتعاون العربي – المجلد الرابع، العدد الأول، الكويت ١٩٧٨، ص ١٣٤ – ١٣٧ .

٢٤ – عبد الجليل زيد مرهون : المرجع السابق، ص ٤٣ – ٤٤ .

٢٥ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٥٦، ص ١٥١ – ١٥٤ .

٢٦ - Area Handbook for the Persian Gulf States< Washington. D.C. American University, 1977, P. 48.

٢٧ - محمد رشيد الفيل : المرجع السابق، ص ٨٧ .

٢٨ - الهيئة البحرية الاستشارية المشتركة بين الحكومات (مسارات السفن) الطبعة الثالثة - لندن ١٩٧٣ ص ٦٨ - ٧٢ . وانظر : رمضاني : المرجع السابق، ص ٢٨ - ٣١ .

٢٩ - عبد الجليل زيد مرهون : المرجع السابق، ص ٥٣، ٥٤ .

٣٠ - رمضاني : المرجع السابق، ص ٣٢ .

٣١ - عبد الجليل زيد مرهون : ص ٥٨، ٥٩ .

٣٢ - جريدة السفير اللبنانية الصادرة في ١٩٩٥/١٠/٢٦م .

٣٣ - د. فخري رشيد مهنا : النظام القانوني للملاحة في المضايق الدولية وتطبيقه على مضيق هرمز، ص ١١، مطبعة الأديب البغدادية - بغداد ١٩٨٠، ص ٥٦، ٥٧ .

٣٤ - فخري رشيد مهنا : المرجع نفسه، ص ٢٠٥ - ٢٢١ .

٣٥ - حسين ندا حسين : الأهمية الاستراتيجية والنظام القانوني للطريق الملاحي البحري في الخليج العربي، دار الحرية للطباعة، بغداد، توزيع الدار الوطنية، بغداد ١٩٨٠، ص ٨٧ .

٣٦ - حسين علي الحبيشي : اليمن والبحر الأحمر، ط١ ، دار الفكر المعاصر - بيروت ١٩٩٢، ص ٤٧٣ -٤٧٤ .

٣٧ - وقائع المؤتمر الثالث حول قانون البحار التابع للأمم المتحدة، في ١٢ يوليو ١٩٧٤، ص ١٠

٣٨ - قرارات مجلس الأمن الخاصة بحرية الملاحة في الخليج، الفصل السادس - التسوية السلمية للنزاع العراقي - الإيراني (١٩٨٣ - ١٩٨٨) .

٣٩ - يحيى حلمي رجب : الخليج العربي والصراع الدولي المعاصر، ط١، دار العروبة للطباعة والنشر - الكويت ١٩٨٩، ص ٥٢، ٥٣ .

٤٠ - د. أنطوان متى : الخليج العربي من الاستعمار حتى الثورة الإيرانية (١٧٩٨ - ١٩٧٨) دار الجيل - بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص ٢٣ .

٤١ - خالد محمد القاسمي : الخليج العربي في السياسة الدولية قضايا ومشكلات، دار الثقافة العربية - الشارقة ١٩٨٧، ص ٧٥ - ٨٠ . وانظر : محمد حسين العيدروس : الأمن السياسي لدول مجلس التعاون، دار المتنبي - أبوظبي، د.ت، ص ١٩ - ٢٠، مجلة

السياسة الدولية، العدد ١٠٥ يوليو ١٩٩١، أمن الخليج بين التوجه العربي والتوجه الأجنبي، بقلم :مراد إبراهيم الدسوقي .

٤٢ - عبد المهدي شريدة : مجلس التعاون لدول الخليج العربية، مدبولي - القاهرة، ط١/١٩٩٥ ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

٤٣ - ندوة - مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي - من سقوط بغداد إلى نهاية الاستعمار البرتغالي، مطابع الوحدة - أبوظبي، ١٩٩٠، ص ٥٨٧ .

٤٤ - د. خالد العري : الخليج العربي في ماضيه وحاضره، مطبعة الجاحظ - بغداد ١٩٧٢، ص ٢١٣ - ٢١٦ .

٤٥ - صحيفة النهار اللبنانية، الصادرة في ١٩٦٨/٥/٨ . وانظر : خالد العري : المرجع السابق ص ٢١٣ .

٤٦ - محمد رشيد الفيل : المرجع السابق، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

٤٧ - د. هنري فورتيك : سياسة إيران إزاء الخليج العربي في السبعينات، مركز دراسات الخليج العربي _ جامعة البصرة، ١٩٨٧، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ . وانظر : خالد العري ص ٢٥١ .

٤٨ - د. محمد حسن العيدروس : العلاقات العربية - الإيرانية، (١٩٢١ - ١٩٧١) ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٥، ص ٤٧٥ . نقلاً عن جريدة الوطن الكويتية، الصادرة في ١٩٧٥/٩/٢ .

٤٩ - محمد حسن العيدروس : المرجع نفسه، ص ٤٧١ - ٤٧٢ وفخري رشيد مهنا ص ٢٤٢ .

٥٠ - ر. ك. رمضاني : المرجع السابق، ص ١٣٠ - ١٩٨ .

٥١ - د. محمد جاسم محمد : الاستراتيجية الأمنية في منطقة الخليج العربي - رؤية عربية، مطبعة جامعة البصرة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٣، ص ١٧٧، وانظر مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٨٣، أمن الخليج العربي، للدكتور عبد الله العنزي، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

٥٢ - د. خليل إلياس مراد : حرب الخليج وانعكاساتها على الأمن القومي العربي، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد ١٩٨٧، ص ١٠٧ - ١١١ .

٥٣ - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٢١، يناير ١٩٨٠، ص ٢٠٨ - ٢١٢ (نقلا عن مجلة التضامن الكويتية في عددها ١٨٣٢ - مقابلة مع السلطان قابوس سلطان عمان) .

٥٤ – د. شفيق عبد الرزاق السامرائي : المشرق العربي، القسم الأول، مطابع مؤسسة دار الكتب، الموصل العراق ١٩٨٠، ص ٥١ – ٥٢ .

٥٥ – خليل إلياس مراد : المرجع السابق، ص ١١١ – ١١٤ .

٥٦ – ندوة – الخليج العربي والعالم الخارجي، جامعة البصرة ١٩٨٧، ص ١٧٥ – ١٧٧ . وانظر فخري رشيد مهنا : المرجع السابق، ص ٢٢٣ وما بعدها .

٥٧ – الندوة العلمية الخامسة لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ٤/٢٩ – ١٩٨٤/٥/١، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

٥٨ – وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ج٣، إعداد وكالة الأنباء القطرية – مطابع الدوحة الحديثة، ١٩٨٣ ص ٣٢ وما بعدها . أنظر الجزء ٤، نفس المصادر، ص ٢٧ – ٣٠ .

٥٩ – J.E. Peterson. : The G.C.C. and Regional, Security, American - Arab Affairs, No. 20, Washington, Spring, 1987 . وانظر : ك. رمضاني : المرجع السابق، ص ٢٠٠ – ٢٠٥ .

٦٠ – جريدة النهار اللبنانية، الصادرة في ١٩٨٠/١٠/٧ . وانظر : خليل إلياس مراد : المرجع السابق، ص ١٩ .

٦١ – محمد جاسم محمد : المرجع السابق، ص ١٤٨ – ١٤٩ .

٦٢ – مركز دراسات الوحدة العربية – الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، مركز التوثيق والمعلومات – يوميات ووقائع الوحدة العربية، ص ٥٣٠ – ٥٣٢ .

٦٣ – جريدة النهار اللبنانية، في عددها الصادر في ١٩٨٠/١٠/٧ .

٦٤ – د. زاهية قدورة : شبه الجزيرة العربية، دار النهضة العربية – بيروت، د.ت. ص ١٣٨ . وانظر عبد الجليل زيد مرهون، ص ١١٢ . وانظر : ميثاق مجلس التعاون الخليجي، ج١، إعداد وكالة الأنباء القطرية، مطابع الخليج – الدوحة قطر ١٩٨٨، ص ٤٧ .

٦٥ – جريدة الاتحاد الظبيانية الصادرة في ٤ فبراير ١٩٨٤، (مقابلة وفد صحفي ياباني مع السيد / يوسف بن علوي) .

٦٦ – Yoseph Wright Twinam. : U.S. Interests in the Arabian Gulf. American - Arab Affairs, Summer, 1987, No. 21 Washington, U.S.A. وانظر : جريدة النهار الصادرة في ١٩٨٠/١٠/٧ .

٦٧ - الأطماع العالمية في الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨١ ص ١٢٥ . وانظر : مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٥٦، ص ١٥٨ .

٦٨ - الأطماع العالمية في الخليج العربي، المرجع السابق، ص ١٢٧ و ص ١٣٠ .

٦٩ - مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة، ١٩٨٥، بحث بعنوان : سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الخليج العربي، للأستاذ فيليب استوادارد، ص ٦١ - ٦٤ .

٧٠ - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ج٥، مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة قطر ١٩٨٥، إعداد وكالة الأنباء القطرية، ص ٣٢٩ - ٣٣١ .

٧١ - يحيى حلمي رجب : المرجع السابق، ص ١٩٥ وما بعدها .

٧٢ - صحيفة الشرق الأوسط - العدد٢٨٣٢، الصادرة في ١٩٨٦/٨/٣ . وانظر صحيفة عكاظ - جدة، العدد ٧٦٣٤، الصادرة في ١٩٨٧/٥/٢٣ .

٧٣ - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ج٧، مطابع الدوحة الحديثة، ١٩٨٧، ص ١٢٤ - ١٣٠ . وانظر : عبد الجليل زيد مرهون : المرجع السابق، ص ١١٦ .

٧٤ - Lauric Mylroie. : The Super Powers and the Iran - Iraq War< American Arab Affairs, No. 21, Summer, 1987, Washington.

٧٥ - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ج٨، مطابع الخليج، الدوحة قطر، ١٩٨٨، ص ٨٥ - ٨٦ . وانظر : يحيى حلمي رجب : المرجع السابق، ص ١٣٥ - ١٣٧، ٢١٢ .

٧٦ - وثائق مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ج٨، ص ٢٣٤ - ٢٣٧ .

٧٧ _ د. عناد فواز الكبيسي : سياسة روسيا المعاصرة تجاه الخليج العربي - جامعة البصرة، ١٩٨٧، ص ٦٥ - ٨٤ . وانظر : د. توفيق يوسف حصو : العلاقات الخليجية العربية الأمريكية، مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ١٩٨٧، ص ٢٣٦ .

التاريخ بين الرواية





الشفهية والوثيقة التاريخية

بقلم : الدكتور رأفت عبد الحميد محمد

"قال الراوي . . يا سادة يا كرام !!" .

عبارة تبتدئ بها كل سيرة وصلت إلى أيدينا من السير الشعبية المعروفة، "سيرة عنترة بن شداد" و "سيرة الملك سيف بن ذي يزن ملك اليمن"، و "سيرة حمزة العرب الأمير حمزة البهلوان"، و "السيرة الهلالية"، أو قصة "الزير سالم أبو ليلى المهلهل"، و "تغريبة بني هلال"، و سيرة الأميرة ذات الهمة"، و "سيرة الظاهر بيبرس"، وغير ذلك، على حين تستفتح شهرزاد كل ليلة من لياليها عند حكيها لحكاية جديدة أو استمرارها في واحدة كانت قد بدأتها بالفعل من قبل، بقولها الشهير "بلغني أيها الملك السعيد" وكلمة "بلغني" هي شكل آخر من أشكال "قال الراوي" . فالدلالة واحدة .

مكانة وخطراً، لما يحويه من المواعظ، والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذا الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدي بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى . لا جرم إن كانت الأنفس الفاضلة به رامقة، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة"[٨] . وهذه العبارات التي أوردها المقريزي لا تبتعد عما أوردته السير الشعبية التي تعد النموذج الحي المتجسد للرواية الشفهية، عن الهدف المبتغى من وراء سردها أو قصها على مسامع العامة .

غير أن هذا لا ينحو بنا بعيداً عن الجانب الوثائقي في الدراسات التاريخية، وهو عصبها، فكما أسلفنا من القول إن "الراوي" يبتدئ روايته بالقول عمن أخذ : "قال الراوي"، فإن المؤرخ يدعم دراسته وتأريخه بقوله "تحدثنا الوثيقة" أو "تخبرنا المصادر"، والباحث المدقق يفتتح مطالعته لأي كتاب في التاريخ، بالصفحات الأخيرة من الكتاب، بحثاً عن المصادر والوثائق التاريخية التي اعتمد عليها المؤلف في كتابه، وتحدد القيمة العلمية تبعاً لمدى أصالة تلك الوثائق والمصادر . ومن البدهي أن أي باحث أو مؤرخ لا يمكن مطلقاً أن يقف فوق جسر الصدق ما لم تكن الوثيقة مصدر بحثه وركيزة دراسته، شريطة أن تكون الوثيقة نفسها صادقة لم تمسسها يد التزييف، وتلك قضية أخرى !

وقد وقف مؤرخنا الأشهر "ابن خلدون" على هذه الناحية وحدثنا عنها بكل الدقة عندما كتب في "مقدمته" يقول : ". . . والتاريخ في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأمم وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها. وخلطها المتطفلون بدسائس في الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها"[٩] .

وابن خلدون هنا كما هو ظاهر في عبارته، يفصل بين المؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة في منزلة القضاء، وكاتب التاريخ المتطفل على كتابته بكل ما تفصله كلماته من بعد عن الانتقاء ! !

ولنكمل حديث ابن خلدون لنرى إلى أي حد يعد البعد عن الوثيقة في الدراسة التاريخية ضرباً من العبث، والعبث نفسه في عدم تمحيص كل ما

يكتب، والتغاضي عن الدقة في كل ما يقال ويدون، وتلك آفة نفر ليس بالقليل ممن يتصدون لكتابة التاريخ، فإنه يمكننا القول قياساً على شهادة العلامة ابن خلدون، "كثيرون يكتبون التاريخ، وقليل منهم المؤرخون"، فالمؤرخ بالدرجة الأولى قاضٍ وليس قاصاً ولا مجرد ناقل. يقول العلامة مكملاً حديثه الذي توقفنا عنده منذ قليل : ". . . واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترّهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوَم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يملي وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمثل، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل"(١٠).

واضح تماماً أن ابن خلدون يقف موقفاً جاداً من أولئك الذين يكتبون التاريخ بأيديهم ثم يقولون إنما قال بهذا الأسلاف، ونحن على آثارهم مقتدون، دون تمحيص وتدقيق، ومناقشة ومقارنة وتحليل، ونقد بعد كل ذلك عميق وأصيل . هؤلاء النفر لا يعدون من المؤرخين وإن حسبوا أنفسهم كذلك وإن عدهم أناس هكذا !

والذي يلفت النظر ويدل على فراسة العرب وسبقهم في العديد من ميادين المعرفة الإنسانية، أن ابن خلدون فصل في صدر مقدمته بين الرواية والتاريخ، أو بتعبير أكثر دقة بين التاريخ المروي أو الرواية الشفهية والتاريخ الوثائقي، وميدان هذا وذاك، وما يحتاجه عامة الناس والجمهور، وما يسعى إليه خاصة الدارسين وأعيانهم، وهذا بيت القصيد في بحثنا هذا، يقول : ". . . فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدى لنا شأن الخليقة كيف

تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال . وفي باطنه . . . "[11] .

وهذه العبارات الأخيرة تنصرف دون مناقشة إلى الرواية الشفهية أو التاريخ المروي، الذي "تنمو فيه الأقوال" بزيادة الروايات جيلاً بعد جيل، يضيف إليها راو بعد راو، ومحدث بعد آخر، ويتفنن كل منهم في إضافة قصة على هامش الرواية، أو طرفة لطيفة، أو مثل جرت به الألسنة مع الزمان، ويضيف إليها من عندياته ما يشوق السامعين، وتلك براعة الراوي في فن الإلقاء، وهذا ما يشير إليه ابن خلدون بقوله : "وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال"، حيث يتحلق الناس حول هذا الراوي أو ذاك في إصغاء عجيب .

وإذا كنا قد فصلنا بحزم بين من يكتبون التاريخ والمؤرخين، وأكدنا على أن المؤرخ هو الذي يضع الوثيقة نصب عينيه، مخضعاً إياها للتحليل والمناقشة والمقارنة والتمحيص والنقد، فإن هذا يدفعنا مباشرة إلى إثارة هذا السؤال الجوهري . . أين موضع الرواية الشفهية من الكتابة التاريخية ؟

لا يستطيع أحد أن ينكر أن التاريخ كان في أصل نشأته روايات شفهية جرت بها ألسنة الناس، أو تناقلها الرواة جيلاً بعد جيل، وتمثلت عند العرب في أشعارهم، حتى عُدَّ الشعر ديوان العرب، فسجلوا بالقريض أفراحهم وأتراحهم، ومجالس سمرهم، وحلهم وترحالهم، وأيامهم في الجاهلية والإسلام، وساعدت ملكة الحفظ لديهم في نقل هذا التاريخ والاحتفاظ به لفترة زمنية طويلة . والعرب هنا لم يبتعدوا عن الأصل التاريخي لكلمة (Istoria) اليونانية، والتي كان يقصد منها في بلد الإغريق قديماً البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، وهي معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، ثم تطورت الكلمة لتضم إلى ذلك معرفة الأحداث التي رافقت نمو هذه الظواهر[12] .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن هذه المفاهيم لم تكن واردة في أول الأمر، بالمعنى الذي نقصده، لدى هؤلاء الشعراء العرب الذين تركوا شعرهم ودونوا فيه تلك الأحداث التي عايشوها

أو حدثوا عنها فيما بعد تمجيداً وافتخاراً، "فأيام العرب ؛ ترجع في أصلها إلى الأدب أكثر مما ترجع إلى التاريخ، فقد كانت تروى بالدرجة الأولى لإيناس السامعين ولإمتاعهم، حقاً لقد كانت تحتوي على عناصر تاريخية من حيث أنها سجلت أحداثاً كبرى [كحرب البسوس، وداحس والغبراء، وغير ذلك]، ومن حيث أنها اعتبرت مثل تلك الأحداث متصلة بنواح معنوية معينة"[13]، وقد لعبت فنون وأشكال هذه "الأيام" و "القصائد" التي خلدتها، دوراً هاماً في تشكيل علم التاريخ عند المسلمين .

فمن الأمور التي لا يتطرق إليها الشك أن التاريخ الإسلامي نشأ في أول أمره معتمداً اعتماداً كاملاً على الرواية الشفهية، حتى عرف المشتغلون به بادئ ذي بدء بالرواة أو الإخباريين، ولم يكن هناك آنذاك ما ينتقص من قدر هذه الرواية لأن ملكة الحفظ العربية كانت لها السيادة على الكتابة أو التدوين إبان العصور الجاهلية وصدر الإسلام . وإن نظرة سريعة إلى كتب السيرة النبوية والمغازي نجدها كلها تورد أخبارها يقول مؤلفها : حدثنا فلان عن فلان، وحول هذا يقول الأستاذ أحمد أمين[14] " . . . لو تتبعت في ابن جرير الطبري سلسلة رواياته وجدت أن الرواة الثلاثة أو الأربعة الذين يتصلون به وبحياته كانوا في العصر العباسي، وهؤلاء يروون عمن قبلهم ممن كانوا في عهد الأمويين أو الخلفاء الراشدين، نعني بذلك أن الحوادث التي دونت كانت معروفة في العصر الذي يؤرخ له، وابن اسحق وأمثاله إنما دونوا ما كان معروفاً وجمعوه" .

من هنا كان أول ما دون في التاريخ الإسلامي - بطبيعة الحال - يعتمد على الذاكرة الإنسانية، أو بتعبير آخر، الرواية الشفهية، ولعل من يقرأ ما دون من الذاكرة يتجلى له أن أغلب التاريخ العربي الإسلامي الأول مستمد من السمع والمشاهدة، ومن ثم جاء تدوين المؤرخين الأوائل لما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما عرف بـ "الإسناد" بمعنى دفع الخبر إلى قائله، وهكذا كان الحُفَّاظ هم الوسطاء بين الخبر والمؤرخ[15] .

وهذه السلسلة الطويلة من "العنعنة" التي نشهدها مثلاً عند ابن هشام في السيرة النبوية، والواقدي في

المغازي، والطبري في تاريخ الرسل والملوك، تؤكد أمرين أساسيين على قدر كبير من الأهمية، أولهما : الدور الكبير الذي لعبته الرواية الشفهية في تدوين التاريخ الإسلامي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة على الأقل، والثاني : دور الرواة أو الحُفّاظ في الحفاظ على هذه الروايات ونقلها جيلاً بعد جيل، مع محاولة التيقن الكامل من عدم انقطاع ثبت السند أو العنعنة حتى لا تمسى الرواية ضعيفة الإسناد فلا يؤخذ بها .

لا غرو إذن أن ينشأ علم التاريخ عند المسلمين في أحضان علم الحديث، لأن هذه الطريقة عينها هي التي اتبعت في جمع الأحاديث النبوية، ولما كان تحري الدقة والأمانة حتماً مقضياً عند جمع هذه الأحاديث، فقد انسحب ذلك بالتالي على الروايات الشفهية التي تتصل بحياة الرسول وصحبه مكونة سيرته ومغازيه ﷺ . ولما كان المسلمون حريصين في الناحيتين على التزام جادة الصدق والضبط في جمع مادتي الحديث والسيرة، فقد أصبح منهاج "الجرح والتعديل" ميزان الحقيقة في كل من هذه وتلك . وابن خلدون يشير إلى مثل هذه الناحية ويؤكد على ضرورة "البحث والروية" والبعد عن "الغفلة وضعف النظر"[١٦]. ويشاركه في هذا الرأي "السخاوي"[١٧].

وقد حرص كثير من الخلفاء المسلمين على أن يكون إلى جوارهم دوماً من "يقص" عليهم أو "يروي" لهم أخبار الأمم السالفة التي سبقت الدعوة الإسلامية، وشيئاً عن أحوال ملوكهم وسادتهم، حتى أن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، كان كما يحدث عنه المسعودي، "يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة . . . ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر من يواصل له الروايات الخاصة بسير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات" .

نحن هنا إذن أمام كم هائل من الروايات الشفهية تناقلها حفاظ العرب أمة بعد أمة، شعراً كان أو نثراً، وإن كان الشعر هو الغالب لسهولة حفظه، وقد وجد المؤرخون المسلمون الأوائل أمامهم كل هذه الروايات الشفهية فجمعوها، وزاد الأمر كثرة دخول

الشعوب المختلفة ذات التواريخ في الإسلام مثل الفرس وجماعات من الروم والمصريين ونفر من بني يهود، وهؤلاء جميعاً رووا تواريخهم، وحدثوا المسلمين بها وبتاريخ الأمم الأخرى، ويكفي نظرة واحدة إلى تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري، وقد قدمته هنا بلفظ "الإمام" لأن الرجل كان مفسراً ومؤرخاً، وهذا ما أسلفنا عنه الحديث منذ قليل عند القول بأن المؤرخين المسلمين الأوائل كانوا رواة ومحدثين أو مفسرين، نقول إن نظرة واحدة إلى تاريخ الطبري تكفي للوقوف على هذا الكم الهائل من الروايات الشفهية التي يوردها هؤلاء المؤرخون الأوائل بعد أن سمعوها وجمعوها، وهو حريص في الوقت ذاته على أن يرويها بسندها، فنراه يذكر مثلاً : "... حدثني ابن سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال" أو "حدثنا شعيب عن سيف عن الربيع وأبي المجالد وأبي عثمان وأبي حارثة، قالوا" وهكذا .

ورغم أن ابن خلدون يهاجم في مقدمته نفراً من المؤرخين الأوائل ويذكرهم بأسمائهم، لاعتمادهم على مجرد النقل لما سمعوا أو رأوا وتدوينهم لذلك دون تمحيص، إلا أن هذا لا يلغي مطلقاً الأهمية الكبيرة التي كانت عليها هذه الروايات الشفهية الذائعة والمنتشرة وفي الوقت نفسه المحفوظة شعراً بصفة خاصة أو نثراً، في كتابة التاريخ الإسلامي في أول الأمر . غير أن المسلمين لم يقفوا بتواريخهم عند هذه المرحلة، بل تجاوزوها بمراحل متعددة، ودخل التاريخ من بعد عندهم في مجال العلوم، بل اعتبروه - على حد قول السخاوي - من أحسن العلوم وأشهاها، ونذر السخاوي نفسه للدفاع عنه وذم من ذمه، وتبيان أهميته وأبعاده وأهدافه، في كتابه الذائع "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ"، وأفرد له ابن خلدون الصفحات الطوال في مقدمته الرائعة .

وتشكل الرواية الشفهية الركيزة الأساسية في الموروث الشعبي الذي يحكي مسيرة الشعوب نفسها، وطموحاتها وآلامها، ونبض الحياة الاجتماعية بكل جوانبها، والحياة الاقتصادية من حيث ممارسة الناس لها وتعايشهم في كنفها، بعيداً عن سيرة الحاكم وسلطانه، ومن هذا المنطلق يلتف الموروث الشعبي حول جوهره، ويشكل الاثنان معاً - كما حدث في كثير من الأزمان وعند كثير من الشعوب،

الأسطورة وهي التي خرج من رحمها التاريخ منذ البداية . وفي العصور الوسطى بصفة خاصة في الشرق الإسلامي أو الغرب المسيحي على السواء، يجد المؤرخ نفسه مدفوعاً إلى الاعتماد أحياناً على بعض هذه الروايات أو الموروث الشعبي أو الأسطورة، ليكمل بأي منها ما نقص في المصادر أو الوثيقة التاريخية . ومن ثم فليس غريباً القول إن الرواية الشفهية تعد ضرورية أحياناً لتفسير ما غمض أو صعب فهمه في بعض جوانب الوثيقة التاريخية .

والموروثات الشعبية تحمل رؤية الشعب لتاريخه وتفسيره لمسيرته الحضارية، كما تشي بكل ما كان يحركه من قيم أو مثل عليا والنظام الأخلاقي الذي حكم في الزمان والمكان .

والموروثات الشعبية تتضمن الأسطورة، والسيرة الشعبية والحكايات والألغاز والأمثال والأغاني والنكات، وغيرها مما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائي .

ولعل الفرق الجوهري بين التسجيل الرسمي للتاريخ والتسجيل الشعبي هو أن الأول قصد به أن يكون تاريخاً، أي أنه مقصود أن يصل للأجيال التالية على النحو الذي تمت به كتابته، أما التسجيل الشعبي فهو تسجيل شفاهي تراثي تتناقله الأجيال وتزيد عليه، وتعدل في مضمونه بما يخدم أهداف الجماعة الإنسانية، دون أن يقصد به أن يكون تاريخاً يقرأه الناس في الأجيال التالية، ذلك أن الموروثات الشعبية تعبير تلقائي عن الناس في حياتهم اليومية، وعن رأيهم في أحداث تاريخهم ورؤيتهم له، وإذا كنا نستطيع من خلال المصادر التاريخية التقليدية، أن نستعيد صورة الحدث التاريخي من ذمة الماضي، فإن هذه الصورة تظل باهتة لا حياة فيها ما لم نفهم أهل العصر الذي ندرسه من خلال عاطفتهم ووجدانهم وقيمهم الأخلاقية، ومثلهم العليا التي حركتهم آنذاك، والموروثات الشعبية مصدر هام للمؤرخ الذي يدرس التاريخ الاجتماعي، أو النتاج الثقافي لأمة من الأمم[١٨].

ولعل أروع تعبير يمكن أن يؤتى به الآن، هو ما جرى على لسان "جورج ماكولي تريفيليان – G.M. Trivilian" عندما قال : "لا تتألف روح الشعر في تدوين التاريخ من خيال يطوف في

الفضاء، ولكنها تتألف من خيال يقتفي أثر الحقيقة ويلتصق بها، وبالنظر إلى أن الحقيقة قد وقعت فعلاً فإنها تجمع حولها سر الحياة والموت والزمن الذي لا يسبر غوره، فعلم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة، وخياله وفنه يوضحان مدلولها"[١٩] .

ويصل الانتلاف بين الرواية الشفهية والموروث الشعبي ذروته ويضحيان شيئا واحداً في السير أو الملاحم الشعبية التي أشرنا إليها في صدر بحثنا هذا، وهي خاصة بالتراث العربي، ويقابلها في أوروبا أيضاً الكثير مثلها ويسبقها بعضها أحياناً، فالموروث الشعبي يجد ضالته في شخصية محورية تاريخية حقيقية فعلاً، لعبت دوراً معيناً في مسيرة التاريخ الإنساني، وتنسج حوله خيوط روايات تكون "ملحمة" شعبية، ولا يخفى على أحد أن المشاعر الشعبية تبحث عن شخصية البطل الذي ترتجيه في حاضرها ولا تجده ماثلاً بين ظهرانيها، فتستدعيه من ذاكرة التاريخ الرسمي، وتصنع منه البطل الذي تتطلع إليه ليخرج بها بقوته الخارقة وذكائه المتقد وحيله البارعة وشخصيته الجذابة، من هذا الواقع الذي تحياه، وتتلظى به، إلى آفاق أخرى تؤملها أكثر إشراقاً وسعادة .

وكان نظم الشعر كما يقول "جوردون شايلد" - من العوامل المساعدة في تذكر الأحداث حين كانت الكتابة غير مستعملة، وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى ظهور ملاحم البطولة والقصص الشعبية، ونمت تلك التقاليد الشعرية لازدياد تواتر الرواية المنقولة عنها، وكانت المبالغة مستحبة في الإشادة بالمفاخر والأمجاد لإثارة حواس المستمع وانتباهه، وهكذا دخلت في المؤرخات الأولى عناصر الملحمة والقصة الشعبية، ومن الأمثلة الشائعة على ذلك ما جاء في التوراة مثل سفر القضاة مثلاً"[٢٠] .

وأجدني هنا ملزماً بأن أترك القلم لـ "إيمري نف Emery Neff"[٢١] . ليلقي الضوء على ما قد مناه تواً فيقول : "إن الروايات المختلفة الكثيرة في نص الإلياذة والأوديسة التي جاءت في الشروح الهامشية القديمة، على مخطوط بالبندقية نشره العالم الفرنسي فلوزان سنة ١٧٨٨، واقتباسات قدامى المؤلفين من شعر هوميروس ومنهم أفلاطون وأرسطو وفرجيل، وهي اقتباسات لم ترد

في مخطوطاتنا، أقنعت "وولف Wolf" (الذي كتب تقديماً لدراسة أعمال هوميروس عام ١٧٩٥) بأن فن الكتابة لم يكن معروفاً عند الإغريق في عصر هوميروس، وأعتقد "وولف" أن هوميروس جمع معظم الملحمتين شفوياً معتمداً على القصص الأسطوري القومي، إلا أن المنشدين قد أضافوا إلى جمعه وغيروا فيه طيلة أربعة قرون تقريباً، ونقلوه بطريق الحفظ حتى دون كتابة في أثينا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. بل إن النص قد تناوله بعد ذلك النحويون والناشرون بالتعديل، وهذا يؤكد الحقيقة الذائعة القائلة بأن الشعب الإغريقي كان حقيقة لا مجازاً هو الشاعر العظيم هوميروس !! وقد أكد المؤرخون في جملتهم أن الملاحم الهومرية ألفت وانتقلت بطريق الرواية الشفوية، بل إن قوة الذاكرة الخارقة عند الشعوب الأمية الحديثة، أثبتت إمكان هذا النقل الشفوي واحتماله، حتى ليقال إن الشيوخ في جزر "هيريديس" يحفظون من الشعر الغاليّ ما يفوق الإلياذة طولاً، وبالرغم من أن العلماء قد عجزوا حتى الآن عن الاتفاق على ما إذا كان للقصائد الهومرية مؤلف واحد أو أكثر، فإنه أصبح من الواضح أن القصائد المنسوبة إلى هوميروس أشبه بالملاحم الشعبية إلى حد كبير منها بالإنشاد المقصود الذي يقوم به شاعر واحد، كما هو الشأن في "إينيادة" "فرجيليوس". وينقل "إيمري نف" عن "نيبور Neibuhr" قوله : "من المشكلات التي قد تستعصي على الحل إنشاء ملحمة شعرية لا تعتمد على موضوع عاش قروناً في الأغاني والقصص الشعبية باعتباره ملكاً شائعاً للأمة"[٢٢].

ويأخذنا "هرنشو Hearnshaw"[٢٣] مع بحثه الرائع ليؤكد لنا هذا المعنى بقوله : "إن التاريخ من حيث هو سجل العصور الغابرة وديوانها الحافظ لأخبارها، قديم قدم اهتداء الإنسان إلى صناعة الكتابة، بل لقد كان الناس قبل ذلك العهد البعيد يتذاكرون قصة الأزمنة القديمة، ويتناقلونها أبناً عن أب على شكل روايات شفوية، وكان الغرض الذي من أجله تنحدر تلك القصة من جيل إلى جيل رواية شفوية، هو من غير شك نفس الغرض الذي نروي من أجله اليوم التاريخ ونكتبه" وهذا ما أشرنا إليه من قبل في صدر هذا البحث.

وتتسم الروايات الشفهية التي تكون الموروث الشعبي بالتلقائية والبساطة من ناحية، كما أنها تدور حول أمور تتعلق

بثقافة المجتمع وتقاليده وعاداته وأخلاقه من ناحية أخرى، ويتم ذلك كله بأسلوب مثقل بالخيال والرموز الشعبية التي تخدم الأغراض والغايات الاجتماعية الثقافية للمجتمع، والموروث الشعبي يحمل أفكاراً ثابتة حقاً تمثل المنحى الثقافي للجماعة.

بيد أنه يحمل أيضاً تفسيرات تتجدد مع كل حقبة زمنية لهذه الأفكار الثابتة، ومن ثم فإنه يمكن أن نصف الموروث الشعبي بأنه نوع من "القراءة الشعبية للتاريخ" وهو ما يعني أن الموروث الشعبي يعكس رؤية الجماعة لتاريخها بغض النظر عن التفاصيل التي تتعلق بالزمان أو المكان أو الأفراد في القصة التاريخية[٢٤].

ويذهب الألماني "فريدريش فون لاين Friedrich" أستاذ الأدب الشعبي مع "والتر أندرسون Walter Anderson" إلى أن الرواية المكتوبة بحق تمثل دوراً له قيمته، إلا أن الرواية الشفهية لها نفس الدور من الأهمية، فالقاص أو الراوي لم يستمع إلى الحكاية مرة واحدة فحسب، كما لم يستمع إليها من راو واحد، وإنما استمع إليها عدة مرات ومن رواة كثيرين، وكل شكل من هذه الأشكال يتعرض للزيادة أو النقصان، إلا أنها مع ذلك - أي هذه الروايات المختلفة - تتأرجح إلى درجة كبيرة حول نقطة ارتكاز لا تتغير في ذاتها، وتظل هكذا أحقاباً طويلة[٢٥].

ولما كانت هذه الروايات في صورتها الأولى مجرد خبر أو مجموعة من الأخبار التي تتصل بتجارب روحية ونفسية عاشها الناس منذ القدم، فقد حرص الناس على الاحتفاظ بها ونقلها عبر الأجيال عن طريق الرواية الشفوية، وليس في وسع كل شخص أن يقوم بعملية الرواية، وإنما هو الشخص الذي يجمع بين موهبة الحفظ ومتعة الرواية في آن واحد، أي أنه الشخص الذي يمتلك طاقة فنية تعادل تلك الطاقة التي يمتلكها كاتب القصة على سبيل المثال، بل في خلق أي نوع أدبي آخر. وليس هذا معناه أن القاص أو الراوي حر في تأليف الرواية وفقاً لأهوائه، وإنما هو مقيد بقوانين شكلية وموضوعية خضعت لها الرواية الشعبية الشفوية منذ القدم ولا تزال تخضع لها حتى اليوم[٢٦].

من هنا ندرك أن الرواية الشفوية، من حيث هي نبض المجتمع بطبقته العريضة أولاً، وفئاته المختلفة ثانياً،

لها أهميتها البعيدة في كتابة التاريخ الاجتماعي لشعب من الشعوب بصورة صادقة، ولا يمكن لأي باحث في التاريخ الاجتماعي، وما يتصل به من نواح اقتصادية وسياسية، أن يقدم بحثاً أصيلاً في ميدان هذه الدراسات، دون أن يضع ضمن مصادره الأصلية، إلى جوار الوثيقة التاريخية، بل وفي مكانة لا تقل عنها أهمية، الروايات الشفوية التي تسود المجتمع الذي يدرسه، بل إن الرواية الشفوية وما تقدمه من موروث شعبي تسد كثيراً من الفراغ الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تملأه الوثيقة التاريخية التي غالباً ما تكون لها الصفة الرسمية.

وإذا كنت قد أفضت في الحديث - على النحو الذي أسلفنا - عن الرواية الشفوية وعلاقتها بالدراسات التاريخية، فإنما يعود ذلك إلى أن بعض المؤرخين قد يحجمون عن الاعتماد على هذه الروايات، معتبرين إياها لا ترقى إلى منزلة الوثيقة التاريخية، ومن ثم قصدت إلى هذه الإطالة للتأكيد على أن الدراسات التاريخية لابد أن تأخذ الجانبين، أو إن شئت قل، المصدرين، في حسبانها، حتى تخرج الدراسات التاريخية من إطارها الرسمي الضيق إلى ساحة أرحب هي المجتمع نفسه.

وهذه النقطة تنقلنا تلقائياً إلى الجانب الثاني وهو "الوثيقة التاريخية" وقد أسلفنا القول أننا نقيس قيمة البحث التاريخي بمدى اعتماد صاحبه على المصادر الأصلية أو الوثيقة التاريخية، دون أن يغمط ذلك حق "الرواية الشفوية" إذا كانت الضرورة التاريخية تستدعي الرجوع إليها في أمر بعينه لم تتضمنه الوثيقة، ولا غنى عنه في تفسير واقعة معينة.

ويعود هذا بنا إلى حديث ابن خلدون في مقدمته حين يتحدث عن التاريخ بقوله "وفي باطنه - أي التاريخ - نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق" ويقول في موضع آخر "وهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر

بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق"[٢٧].

وهذا القول يؤكد بصورة لا تقبل الشك أن ابن خلدون يدعو إلى التزام جادة الدقة في تحري صدق الواقعة، و "التثبت" من صحة الخبر، ولن يتأتى "التثبت" هذا إلا بصدق مصدره أو سلامة "الوثيقة" التي تتضمنه، ناهيك عن حتمية وجودها، ويعيب بشدة على أولئك الذين يعتمدون على مجرد "النقل" دون استخدام العقل في تناولهم للمادة التاريخية.

ويدعم هذا ما ذكره قبل ابن خلدون بقرون طويلة، وهو "سفيان الثوري" من إعلام القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، عندما يقول "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ"[٢٨]، وهو يقصد بالرواة هنا الذين يدلسون الأخبار ويزيفون الحقيقة عن عمد لتحقيق مصالح معينة يبتغونها، وهذا يفسره قول "حسان بن زيد" "لم يُستعن على الكذابين بمثل التاريخ"[٢٩]، طالما كان طريقاً للاطلاع على التزوير في المكاتب (الوثائق" ونحوها[٣٠]، ويجعل السخاوي[٣١]، من هذه النقطة أول صفة من الصفات الواجب توافرها في المؤرخ، فيقول: ". . . فالعدالة مع الضبط التام الناشئ عن مزيد من الإتقان، والتحري سيما فيما يراه في كلام كثير من جهلة المعتنين بسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام".

والتركيز على "التثبت" و "الضبط التام" ينصرف بالذهن مباشرة إلى ضرورة الاعتماد على "الوثيقة" باعتبارها مصدراً أساسياً لمعالجة قضية تاريخية معينة، إذ كيف يمكن تصور دراسة العلاقات الخارجية بين دولة وأخرى دون الرجوع في المقام الأول إلى أرشيف وزارتي خارجية هاتين الدولتين وغيرهما ممن تجمعهم العلاقات الدولية في هذه الحادثة أو تلك، وكيف يعتد بدراسة عن الأخلاق مثلاً في مجتمع ما دون الرجوع إلى مجموعات القوانين الصادرة إبان تلك الفترة موضوع الدراسة، والمتعلقة بالنص على عقوبات معينة ضد جرائم بعينها أو قوانين السوق المتعلقة بالغش التجاري وما إلى ذلك، وقس على هذا العديد من الدراسات التي تدخل في ميدان التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وبالأحرى التاريخ السياسي، مع التنبيه على شيء في غاية الأهمية وهو أن

دراسة النواحي الأخلاقية أو الاجتماعية بصفة خاصة، تقتضي الرواية إلى جوار الوثيقة بالضرورة.

ولعل ديوان الإنشاء الذي عرفته الدولة الإسلامية في عصورها المختلفة، يمثل إحساساً بأهمية الوثيقة التاريخية وحفظها، وليس أدل على ذلك من هذا الكم الهائل الذي حفظته لنا الموسوعات التاريخية والأدبية المختلفة من هذه الوثائق الإسلامية التي لا غنى عنها لأي باحث في التاريخ الإسلامي، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وغيرها.

ولو عدنا إلى قول السخاوي عن "التثبت" و "الضبط التام" لنعلم كيف كان مؤرخنا حريصاً كل الحرص على تحري الدقة والاهتمام بعملية التوثيق، لوجدنا أن ما قاله ينطبق تماماً على كلمة "الوثيقة" في معناها اللغوي، فهي من مادة "وثق" والوثاقة الائتمان، وهي مصدر الشيء المحكم الوثيق، والوثيقة في الأمر إحكامه والأخذ بالثقة[٣٢]، وقد امتد مفهوم الوثيقة الآن في اللغات الأوروبية الحديثة ليضم كل المصادر التاريخية المكتوبة، ولن ندخل هنا في تفصيلات أنواعها واختلافها وتقسيماتها العديدة، فهذا مما لا يتسع المقام له[٣٣]، ولكن الذي يعنينا في هذا المجال هو أهمية الوثيقة في حد ذاتها ومدى صحتها.

والمرجع في ذلك المؤرخ نفسه، أو كما يقول "كولينجوود R.G. Colling Wood" إن الوثيقة أصبحت تحمل طابعاً خاصاً، ربما صدقت عليه كلمة "مصدر تاريخي"، وتلك كلمة معناها أن الوثيقة التي تحتوي على ما قيل في هذا الموضوع أو ذلك، بمعزل عن أية فكرة توحي بقيمة هذه الوثيقة من الوجهة التاريخية، أي أن الوثيقة محل بحث Sub Judice، وأن المؤرخ هو الشخص الوحيد الذي يناط به الحكم على قيمتها[٣٤]، ". فالمؤرخ هو الحجة والمرجع الأخير لنفسه، بمعنى أنه هو الذي يقرر ما يريد من أقوال، أو يصدر الأحكام التاريخية على مسئوليته، وليس لأن هذه الأقوال أو هذه الأحكام قد قررها أو أصدرها مصدر آخر غيره"[٣٥].

والذي يذهب إليه "كولينجوود" هو التأكيد على ضرورة عدم التسليم مباشرة ودون أي تمحيص بصدق الوثيقة، ولكن لابد أن يتدخل المؤرخ فيها بالنقد والتحليل والمناقشة والمقارنة، وما إلى ذلك من أساليب البحث العلمي الجاد، حتى يمكن الحكم على قيمتها . وقدم لنا "هرنشو"[٣٦] دراسة طيبة عن المدارس التي امتلأت بها أوروبا مبتدئة من ألمانيا ممتدة إلى كل أنحاء أوروبا أو متزامنة في بعض الأحيان، والتي وضعت نصب عينيها "النقد والتحليل" لـ "الوثيقة" التاريخية وليس التسليم المطلق بها دون أية مناقشة كما كان يجري الحال من قبل لدى كثير من المؤرخين .

ومع اتساع مفهوم الوثيقة لتضم معطيات جديدة - كما أسلفنا القول - فإن المؤرخ لم يعد يبحث بالضرورة، وهو يسعى إلى معرفة "الوقائع"، عن الوقائع البدهية التي تظهر في هذه الوثيقة التاريخية التقليدية، إنما نراه يبحث عن روابط لا يمكن تتبعها وقياسها إلا بالتحليل والنقد، وتزيد مفاهيم العلم الاجتماعي وأساليبه من نطاق التحقيق بواسطة الوثائق، وتمكن المؤرخ من أن يذهب إلى ما وراء "المعطيات الخام"، و "الشاهد" المباشر . وقد خطا المنهج التاريخي خطوات واسعة في تقرير صحة السجلات المدونة ومعناها الأصلي، وإن الطريقتين الأساسيتين - وهما تحليل الشاهد الداخلي والتحري عن الشاهد الخارجي، أو مقارنة الوثائق بغيرها، ودراسة القرينة الاجتماعية للوثيقة، من المآثر التي تأخذ مكانتها بين الأمور العلمية[٣٧] .

و "التثبت" من صدق الوثيقة على هذا النحو، وإخضاعها للنقد والتحليل، أو ما يعرف بالتاريخ النقدي، يقول الفيلسوف الألماني "هيجل" إنه هو الذي يستحق أن نسميه بـ "تاريخ التاريخ" لأنه نقد للروايات التاريخية ودراسة لحقيقتها ومعقوليتها، والصفة المميزة له من حيث هو كائن وما ينبغي أن يكون، تكمن في حدة الذهن التي يتمتع بها الكاتب والتي تمكنه من أن ينتزع من الوثائق أشياء ليست موجودة في المادة المدونة[٣٨] .

وبوضوح شديد يؤكد "إدوارد كار" هذه المعاني بقوله : "إن التقديس الأعمى للحقائق الذي ساد في القرن التاسع عشر، قد اكتمل ووجد مبررا له في التقديس الأعمى للوثائق، لقد كانت الوثائق حقيقة إذن، ولكن ماذا تخبرنا الوثائق ؟ المراسيم والمعاهدات والكتب الزرقاء، والمراسلات الرسمية والأوراق الخاصة واليوميات، إذا ما تفحصناها بدقة ؟ ما من وثيقة بوسعها أن تخبرنا أكثر مما أراد لها محررها، الشيء الذي اعتقد هو بأنه حدث، أو الذي اعتقد بوجوب حدوثه، أو أنه سيحدث، وليس لهذه الأمور أية أهمية إلى أن يباشر المؤرخ تأثيره فيها وفك مغالقها . إن الحقائق سواء وجدت في الوثائق أو لم توجد، فإنها لابد أن تخضع لصنع المؤرخ قبل أن تعم فائدتها، وأن الفائدة التي يستخلصها من الوثائق، هي عملية الصنع"(٣٩) . "التاريخ هو تجربة المؤرخ، إنه ليس من صنع أحد باستثناء المؤرخ، وكتابة التاريخ هي الطريقة الوحيدة لصنعه"(٤٠) . ويتحدث الدكتور عبد الرحمن بدوي(٤١) حديثاً طويلاً عن الوثيقة، وكيف أن التاريخ يصنع من الوثائق، ويفرد الصفحات الطوال لبيان أهمية الوثائق وكيفية معالجتها وتناولها ودراستها وتمحيصها، وكيفية جمعها وفهرستها والإفادة منها .

من كل ما تقدم ندرك أهمية "الوثيقة" في الدراسات التاريخية، وإن كان استخراج ما فيها يعتمد على حاسة المؤرخ التاريخية، ومهما يكن من أمر فقد تبين لنا بعد هذه الدراسة أن التاريخ مع اعتماده الأساسي على المصادر التاريخية، أو الوثيقة بمضامينه المتعددة في عالم اليوم، إلا أنه في الوقت نفسه لا يمكن أن يغفل جانب الرواية الشفوية، والتي لابد أن تكون قد دونت من بعد بشكل أو بآخر ، فهي تكمل للمؤرخ جوانب نادراً ما يمكن أن تتحدث عنه أو تتضمنه الوثيقة . ويقف "كوليجوود" بعض الشيء في كتابه "فكرة التاريخ" ليتحدث عن "المصادر المكتوبة" و "المصادر غير المكتوبة" ويتناول الفارق بينهما، وإن كان يقصد بالأخيرة المخلفات الأثرية التي تركها الإنسان، ويقول إنها كانت في الأصل قبل تحطيمها "مصادر مكتوبة" .

"الوثيقة" إذن بمعناها الواسع ، هي عصب الدراسة التاريخيــة ، إلا أنـه مـن الصعب نزعـها مـن واقعـها الاجتمـاعي الذي وجدت فيه، أو كتبت من خلاله، والواقع الاجتماعي يمتد هنا ليشمل كـل مناحي الحياة الإنسانية فـي المجتمـع، والوثيقة بمعناها الواسع الذي عرضنا لـه من قبل، لابد أنها جزء من هـذا الإطـار الاجتماعي الضخم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والروايـة الشفهية التـي غـدت مأثورات شعبية بفعل الزمن تمثل خلفية الكتابــة التـي لابـد أن يمـلأ فراغـها المؤرخ .

أ. د. رأفت عبد الحميد محمد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
وعميد كلية الآداب - جامعة عين شمس

الهوامش

١ - سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن، بيروت ١٩٨٥، جـ١ ص ٣ .

٢ - سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول، ص ١١ .

٣ - سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب، بيروت ١٩٨١، المجلد الأول ص ٥ .

٤ - سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن، بيروت ١٩٨٥، جـ١ ص ٣ .

٥ - ألف ليلة وليلة، بيروت بدون تاريخ، جـ١ ص ٥ .

٦ - سيرة الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٩٦، المجلد الأول ص ١٠ .

٧ - مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة١٩٣١، ص ٥٠ - ٥١ .

٨ - المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة بدون تاريخ، جـ١ ص ٢٠ .

٩ - ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، بيروت بدون تاريخ، ص ٤ .

١٠ - ابن خلدون، المقدمة، ص ٤ .

١١ - المصدر نفسه، ص ٣ - ٤ .

١٢ - روزنتال (ف) علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلى، بيروت ١٩٨٣، ص ١٦ .

١٣ - المرجع السابق، ص ٣٣ .

١٤ - فجر الإسلام، القاهرة ١٩٦١، ص ١٥٦ .

١٥ - عبد المنعم ماجد، الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

١٦ - ابن خلدون، المقدمة، ص ٣١ .

١٧ - السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز روزنتال، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت بدون تاريخ، ص ٩٢ - ٩٣ .

١٨ - قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٦ - ١٧ .

١٩ - إيمري نف، المؤرخون وروح الشعر، ترجمة توفيق إسكندر، بيروت بدون تاريخ، ص ٢ .

٢٠ - شايلد (ج)، التاريخ، ترجمة عدلي برسوم عبد الملك، القاهرة بدون تاريخ، ص ٥٢ - ٥٣ .

٢١ - المؤرخون وروح الشعر، ص ١٢١ - ١٢٢ .

٢٢ – إيمري نف، المؤرخون وروح الشعر، ص ١٢٢ .

٢٣ – هرنشو (ف)، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، القاهرة ١٩٤٤، ص ١٥ .

٢٤ – قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، ص ٢٤ .

٢٥ – فريدرش فون دير لاين، الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥ ص ١٤١ .

٢٦ – المرجع السابق، التقديم، ص ٦ .

٢٧ – ابن خلدون، المقدمة، ص ٤، ١٠ .

٢٨ – السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص ٢١ – ٢٢ .

٢٩ – المصدر السابق، ص ٢٢ .

٣٠ – المصدر السابق، ص ٢٥ .

٣١ – الإعلان بالتوبيخ، ص ١١٤ .

٣٢ – ابن منظور، لسان العرب، ج٤١ مادة "وثق" .

٣٣ – لمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع راجع، ليلى الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، دمشق ٧٨ – ١٩٧٩، ص ١٥٤ – ١٦١، حيث تذكر الوثائق بمعناها العام الشامل في ثلاث مجموعات : أ – الوثائق المكتوبة والمطبوعة، ب – الوثائق الأخرى، ج – الرواية المباشرة أو المصدر الحي، ويدخل ضمن الأولى وثائق الأرشيفات الحكومية والمنظمات الاجتماعية والمدونات الإعلامية والتقارير السرية، ويندرج تحت الثانية المنشآت العامة كالقصور والمعابد والمساجد والكنائس والمقابر وغيرها .

٣٤ – كولينجوود، فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة ١٩٦٨، ص ٤٤٦ .

٣٥ – المرجع السابق، ص ٤٧١ .

٣٦ – علم التاريخ، ص ٨٠ – ٨٦، حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، القاهرة ١٩٧٠، ص ٦٥ .

٣٧ – أتكن (هـ.ج.) دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة محمود زايد، بيروت ١٩٦٣، ص ١٤٩، Marwick (A.)The Nature of History, London 1973,P. 132-138.

٣٨ – هيجل (ج.ف.) محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة بدون تاريخ، ص ٦٩ .

٣٩ – إدوارد كار، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، بيروت ١٩٧٦، ص ١٤ .

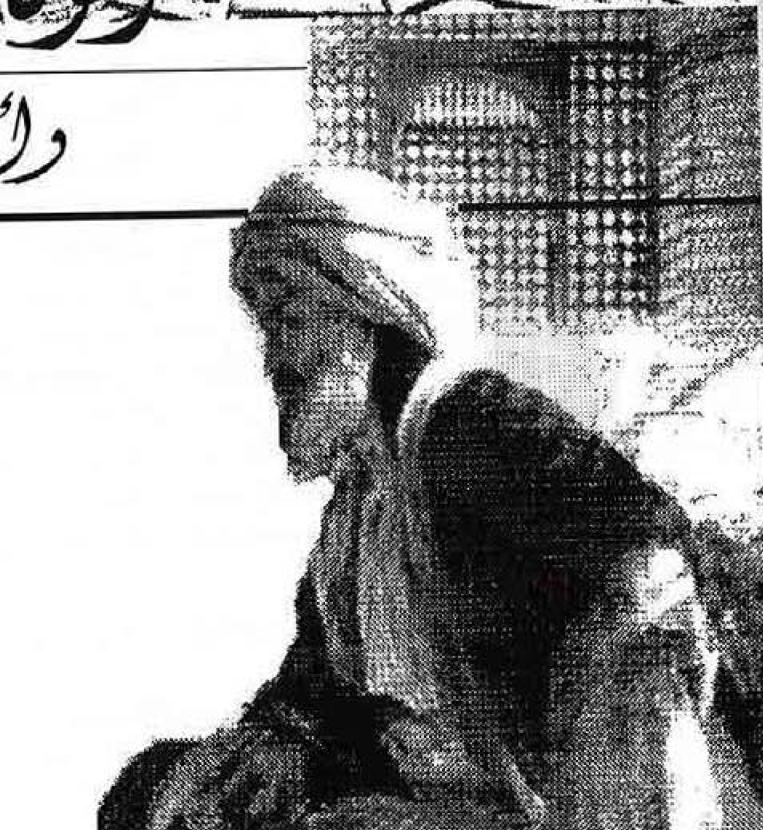
٤٠ – المرجع السابق، ص ٢٠ .

٤١ – النقد التاريخي، الكويت ١٩٧٧، ص ٥ – ٢٦ .



الوثائق

وأهمية





الوثائق التاريخية المسجلة

مقارنتها بالروايات الشفهية

بقلم : الدكتور عبد العزيز عبد الغني إبراهيم

المؤرخ صانع فعالية التاريخ تتشكل عدته في صناعة البناء التاريخي من الوثيقة التي هي المادة التي يعلى بها صرح البناء التاريخي، وكذلك من الصفات التي تميز المؤرخ نفسه من صبر وجلد، وسعة في المعرفة، وتمرس في النقد، وصدق ونزاهة، وقوة توسم وخيال مقيد بالشواهد الوثائقية . وتعد هذه الصفات التي يمتاز بها المؤرخ، الخارطة التي يقوم عليها البناء التاريخي. فالمادة، لا تصنع البناء، والحروف لا تصنع الكلمات ما لم تنظم، والكلمات لا تصنع الجمل المفيدة ما لم تجد من ينظمها بمنهج وهدف . وعلى ضوء هذا يجب علينا أن نقر بداية بأن التاريخ مادة تتأثر بالذاتية، وجدت الوثيقة أم لم توجد . ونذهب إلى أننا حين ندفع لمؤرخين اثنين بمجموعة واحدة من ذات الوثائق فإننا سنصل بالقطع إلى صياغة عملين متمايزين منهجاً، وقد لا يتفقان في نهاية المطاف على نتيجة بعينها .

سقنا هذه المقدمة لنقول بأن صناعة التاريخ تعتمد على عنصرين متلازمين هما الوثائق والمؤرخ، كل على حدة . سيقتصر بحثنا هنا على الوثيقة دون المؤرخ الذي بيده أن يقارن بين هذه الوثائق المختلفة يعتمد منها ما يشاء على ضوء حرفته، ويستبعد منها ما يشاء على ضوء قدراته على النقد وسلامة الحجة . فهل يجوز للمؤرخ أن يصنف الروايات إلى شفهية ومسجلة ويعتمد على هذا التصنيف في تضعيف هذه المجموعة أو قبول تلك، أم أن عليه أن ينظر لكلا الصنفين من العمل بعين مجردة وعقل مفتوح لا يتقيد إلا باختلاف مناهج النقد اللازمة لكلا النوعين .

نبدأ بسؤال نحسب بأنه سينفي الفواصل بين الوثيقة الشفهية والوثيقة المسجلة ونعتقد أنهما وجهان لعملة واحدة لا اختلاف بينهما يستوجب بالضرورة مقارنة واحدة منهما بالأخرى . فحين يقتضي العمل التاريخي مقارنة بين الوثائق علينا ألا ننظر إليها بحسبان أن هذه وثيقة شفهية والأخرى مسجلة، إنما يجب علينا أن ننظر إلى كافة الوثائق في ضوء النقد التاريخي الذي يصنع الضوابط المنهجية لكل من هذين الشكلين من الوثائق .

والسؤال هو : ما هي الوثيقة ؟

اشتقت كلمة وثيقة (Document) من الأصل اللاتيني(Docere) بمعنى يعلم، ولهذه الكلمة (وثيقة Document) عدة معان تتسع وتضيق : فهي في معناها الحرفي الضيق تعني كافة أوراق الدولة الرسمية التي تضم القوانين التشريعية والتنفيذية والقضائية والمعاهدات وكافة المعاملات المتصلة بالدوائر الرسمية . أما المعنى الأوسع لهذه الكلمة فيشمل كافة الأوراق المكتوبة والمصورات والبقايا الأركيولوجية والروايات الشفهية وكافة ما يمكن للمؤرخ أن يستعين به من مادة في كتابته للتاريخ .

أما كلمة توثيق (Documentation) فإنها ذات مدلول أشمل وأعم مما ذكرنا، فهي غير مقصورة على الشواهد التاريخية ومواد المؤرخين لأنها تدل على كل وسيلة ممكنة للبرهان على أمر ما اعتماداً على مراجع بعينها . فالتوثيق يستخدمه المؤرخون كما يستخدمه غيرهم من الباحثين والمعنيين بالمجالات العلمية المختلفة .

وعلى ضوء ما ذكرناه نرى أن الوثيقة المكتوبة، والوثيقة المنقوشة والمصورة والمحفورة، والوثيقة الشفهية، لا تزيد عن كونها نقوشاً على وجهي عملة واحدة يقع على المؤرخ تحديد قيمتها التاريخية .وفي اعتقادنا أن الرواية الشفهية أصل متجذر في كتابة التاريخ الذي لا نستطيع أن نرد بداية كتابته إلا إلى الاستفسار . فإذا سلمنا بما هو متعارف عليه في أوساط المؤرخين من أن التاريخ المكتوب بدأ مع هيرودوت الملقب بأبي التاريخ فإننا نجد أن تواريخ هيرودوت لا تزيد عن كونها أسئلة وإجابات، بل أن كلمة تاريخ نفسها حين نحاول الوصول إلى معناها اللغوي (هستوريا Historia) فإننا نجد أن ترجمتها لا تعني إلا كلمة استفسار . وأن الاستفسار الذي قام به هيرودوت ثم ثيوديد Thuydides من بعده ومن لف لفهما في ذلك العصر حوى فيما حوى المتواترات Oral Tractitions كما اشتمل على المعلومات التي سعى كل من هذين المؤرخين وغيرهما إلى جمعها من أفواه الناس .

ذهبت بهيرودوت أسفاره بعيداً عبر آسيا الصغرى ومناطق من الشام وفلسطين ومصر وهو يجمع من أفواه الناس القصص عن الماضي ويتفحص الآثار ويقف دارساً عند الأطلال والخرائب والمخلفات الأثرية . ولا مندوحة من القول بأن كثيراً من تواريخ هيرودوت قد روت حوادث وقعت قبل عهده بقرون أثبتها هذا المؤرخ دون دليل مكتوب إنما استقاها من أفواه الرجال . كتب هيرودوت عن أهرامات مصر وعن فراعنتها ووضع لهم تسلسلاً تاريخياً، كما ذكر شيئاً من أخبارهم، ونسج هيرودوت على ضوء منهجه من أقوال محدثيه ما أثبت العلم الحديث صدقه، واستحق هيرودوت باستفساراته التي أثبتها لقب أبي التاريخ، ذلك رغم أنه أورد كثيراً من الترهات التي سمعها والتي لا تثير في القارئ الحديث إلا الضحك .

ويختلف عمل ثيوديد عن عمل هيرودوت وأعمال غيره من المؤرخين الإغريق والرومان (اكسنفون، بوليبوس، سالوست، قيصر، تاكيتوس، أميانوس Ammianus ومارسيلينوس Marcellinus وغيرهم) في أنه اعتمد الوثائق الشفهية ولكنه زاد على ذلك بأن أثبت خبرته الخاصة وغدا شاهداً على عصره . فقد

شارك ثيوديد في كثير من الحوادث التي كتب عنها . كتب الرجل عن حرب البلوبونيز التي كان من جنودها، وقد بدأ تسجيله لحوادث تلك الحرب مع بداياتها . واستمر على دأبه ذلك يكتب عنها دون انقطاع لمدة سبع وعشرين سنة متصلة، وهي المدة التي شغلتها تلك الحرب . كان ثيوديد طول هذه المدة الزمنية يسجل الحوادث التي عاشها في الميدان ولكنه لم يكتف بذلك بل إنه كان يشد الرحال من مدينة إغريقة إلى أخرى يناقش المشتركين في الحرب ويأخذ من أفواههم ويكتب . وعلى الرغم من الدقة التي اتسمت بها كتابات هذا المؤرخ العظيم إلا أنه صرح في مقدمته بأنه لم يرم إلى بلوغ مرحلة "الدقة المتناهية" لأنه عمد إلى نقل القيم المفيدة المتخلفة عن الحوادث التي رواها له الآخرون . وفي اعتقادنا أن ما قاله ثيوديد هنا يضعه في مقدمة المؤرخين في كل عصر، فالتاريخ قيمة أخلاقية وهدف في ذاته يرمي إلى خدمة المجتمع .

واستمر الغربيون يعتمدون المتواترات والشواهد الشفهية قبل فترة العصور الوسطى، وعلى امتداد هذه الفترة حتى نهايتها . وكان لهذه الشواهد والمتواترات أهمية خاصة يعترف بها المؤرخون الغربيون في العصر الحديث في دراسة وتسجيل ما جاء في "الكتاب المقدس Bible" في العهدين القديم والجديد وبخاصة في العهد الجديد (الأناجيل) . فالثابت تاريخياً أن كل ما ورد في العهد الجديد تم جمعه وتصنيفه في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وقد استغرق هذا الجمع للمادة من أفواه الناس أكثر من سبعين عاماً . وقد كان أكثر النصارى في تلك الفترة أميين لا يعرفون الكتاب "إلا أماني" ويعتمدون تماماً على الكلمة المنطوقة، وكان أوائل المنصرين في أوروبا يعتمدون على الكلمة المنطوقة لا المقروءة في نشر ثقافة الإنجيل في أوساط المتحولين الجدد في أوروبا .

أما في العصر الوسيط فقد اعتمد المؤرخون الغربيون على التاريخ الشفهي اعتماداً كبيراً خاصة ما ورد عن أولئك المؤرخين الذين يعرفون بالمؤرخين التقليديين الذين يرجعون إلى ويلز واسكتلنده وإلى أيرلنده خاصة . عرفت هذه المناطق عدداً من المؤرخين اتخذوا رواية التاريخ حرفة يكسبون بها

معاشهم . وكانت الأسر الكبيرة التي يردد لها هؤلاء الرواة تاريخها هي التي تتولى الإنفاق عليهم وتوظيفهم . ولربما تجاوز مثل هؤلاء المؤرخين مهمة المؤرخ فتجاوزوا إلى المحاباة والتغني بمآثر تلك المجموعة من العائلات، وبرروا ازدهار الأحوال الاجتماعية والسياسية في ذلك الوقت وردوه إلى أهل الفضل والخير من تلك الأسر . ولكننا حتى حين نستثني هؤلاء الجماعة من المداحين لا يسعنا إلا أن نؤكد بأن المؤرخين الملتزمين كانوا في تلك الفترة في أعمهم يعتمدون على الرواية الشفهية في تلك المجتمعات التي يمكن وصفها بأنها كانت أمية أو – على أحسن الفروض – شبه أمية . فكل مؤرخي غرب أوروبا المشهورين في العصور الوسطى من أمثال بيدي (Bede) وجريجوري التلوزي وأسيدور السفيلي (Isidore Seville) و ودوكند (Widukind) والآخرين كتبوا مثلهم مثل أسلافهم الإغريق والرومان في التاريخ المعاصر لهم واستعانوا بالمتواترات التي ورثوها من أخبار النصارى الأول، وأضافوا على ذلك – كما تشهد كتاباتهم – الأمثال والأقوال السائرة .

وظلت للتاريخ الشفهي المكانة الأولى في فكر مؤرخي العصور الوسطى في أوروبا . ويكفينا أن نشير إلى أن كافة سير "الآباء" وشهداء النصرانية الأول ومن إليهم من الرموز المقدسة في الفكر النصراني لم يتم تدوينها في أوروبا إلا اعتباراً من القرن الثالث عشر . وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون في هذا الصدد اعتماداً كاملاً على ذاكرة الشعوب وصدور الرجال التي توارثت تلك الأقوال جيلاً بعد جيل . ويمكن القول بأن الوثيقة الشفهية قد ازدادت في تلك الفترة رسوخاً وقداسة بفضل ما تحويه من أخبار القديسين والمقدسين . وفي الحقيقة فإن قداسة الرواية لم ترتبط في الذهن الأوروبي بالعصور التي شهدت تسجيل تاريخ النصرانية فقط إنما تجاوزت تلك إلى عصري الإغريق والرومان . فأحداث سقوط طروادة كما ترويه الإلياذة كان لها في الفكر الأوروبي القديم درجة من القداسة . وربما اعتبر بعض مستنيري ذلك العصر هومر المؤرخ الأول الذي سبق هيرودوت . ولم يكن هومر – على ضوء هذا الفهم – إلا أول من يشار إليه من المؤرخين الشفاهيين .

ويؤكد احترام الأوروبيين المستنيرين في ذلك العصر القديم للرواية الشفهية ما ينسب إلى سقراط أو إلى بعض أساتذته من الفلاسفة من قول بأنه يفضل لكلماته أن تطبع على قلوب البشر الأحياء ولا يريد لها أن تدون على جلود الأبقار النافقة . وفي ظننا أن الرجل لم يخطئ الصواب، فالكلمة التي تعبر الأجيال من لسان إلى لسان أدعى للاحترام من الكلمة المحفوظة في الأضابير وأوسع منها انتشاراً . وأهمية الوثيقة الشفهية - في ظننا - كبيرة جداً، فأكثر الحوادث المتصلة بالإنسان لا تجد طريقها إلى التسجيل ولا تخلف ما يحدث عنها كتابة ولكنها قد تظل متواترة على ألسنة المجتمع .

أخذت الرواية الشفهية في كتابة التاريخ الأوروبي تفقد قداستها ثم مكانتها منذ فجر النهضة وظهور فكر الإنسانيين ثم تهاوت بعد ذلك بالدراسات النقدية التي كان لورنزو فالا رائدها في ذلك العصر . لم يثبت التاريخ الأوروبي الذي كان يقوم على التاريخ الشفهي بقوة أمام تلك الدراسات النقدية وأخذت أسسه تتصدع، وأصبحت الوثيقة المكتوبة من ثمة هي الأساس المعتمد لكتابة التاريخ .

وتطور منذ القرن السادس عشر مفهوم الوثيقة المسجلة مع تطور الفكر المادي للغرب . وفي القرن التاسع عشر عدت الوثيقة المكتوبة هي الركيزة الأساسية في توثيق التاريخ . ثم ما لبث أن تطورت في القرن التالي وسائل الطباعة وعلوم الأرشيف والمكتبات ووسائل الحفظ عموماً تطوراً كبيراً فأصبحنا نجد من مؤرخي الغرب من يقول : حين لا توجد وثيقة مسجلة فعلى التاريخ أن يصمت . ومع ذلك نجد أن كثيراً من مؤرخي التاريخ العسكري الغربيين لا يزالون على دأبهم يستخدمون الرواية الشفهية في كتاباتهم استخداماً واسعاً .

أما في البلاد العربية والأفريقية والبلاد النامية عموماً، فلم تظفر الوثيقة المسجلة بالريادة في تسجيل التاريخ الحديث إلا مؤخراً بعد الانفتاح على الغرب من قبل المؤسسات التعليمية المستحدثة في هذه البلاد وذلك لأن هذه البلاد كانت تفتقر إلى وسائل وآليات وتقنيات التوثيق المسجل، ولأن تلك المجتمعات كانت في أعمها مجتمعات

تسودها الأمية . غير أن الإنسان الذي هو مخلوق تاريخي لم يهمل في هذه المناطق تاريخه إنما تولاه بالحفظ وتعهده بالرعاية في الصدور وعلى الشفاه .

ولا تزال كثير من البلاد الأفريقية التي لم تجد حظها الوافر من التعليم تروي تاريخها شفاهة، ولا يزال في العديد من المجتمعات الأفريقية المتحدثة بالعربية والهوسا والسواحيلية على وجه الخصوص رواة محترفون اقتصرت مهمتهم على حفظ التاريخ عن الآباء . ففي رواندا - على سبيل المثال لا الحصر - أسر تتوارث أباً عن جد الرواية التاريخية يدرب الآباء الأبناء على حفظها وإلقائها تدريباً طويلاً مضنياً . ولا ريب إن وجدنا في هذا البلد رواة تاريخ محترفين رسميين تقتصر مهامهم على رواية التاريخ على الملأ إلقاءً في الأماكن العامة، كما نجد هنا نسابين تقتصر مهامهم على حفظ أسماء الملوك والملكات بالتتابع . وتختلف الفئتان المذكورتان في رواندا عن فئة من المواطنين المتخصصين في ذكر جلائل أعمال الملوك السابقين ومدح القائمين على الأمور من أبنائهم. وقد أحسن الذهن الرواندي حين ميز هذه الفئة الأخيرة وأطلق عليها لقب المداحين، أما الفئتان الأولى والثانية فلم يطلق عليهما أيضاً لقب المؤرخين إنما عرفهما باسم المكتبات المتحركة أو المكتبات التي تسعى على قدمين (Walking Libraries) .

أما التاريخ في البلاد العربية فقد عرف منه العرب في جاهليتهم لوناً شفهياً ساذجاً تمثل بصفة أساسية في حفظهم لأصول أنسابهم وفخرهم بمآثر أقوامهم وترقية روح الانتماء للعشيرة والقبيلة، وصاغوا كل ذلك شعراً ونثراً حفظوه في صدورهم وجرى على ألسنتهم . ومع ظهور الإسلام تطور مفهوم الأنساب واستقام، وعرف العرب والمسلمون التاريخ العلمي حين ولجوا التاريخ من أوسع أبوابه . فقد بث القرآن الكريم في أهله وعياً ناقداً بالتاريخ حين أمرهم بتدبير أحوال الماضين، وأصبح للتاريخ قيمة أخلاقية ربطت الماضي بالحاضر وبالمستقبل . وعرف التاريخ الإنساني لأول مرة أن الإنسانية في اتصال غير منقطع، وأن سعي الإنسان في هذه الحياة الدنيا سوف يُرى في الحياة الآخرة . ونشأ عند المؤمنين بهذه

النظرية شعور مؤكد بما يمكن أن يسمى بتاريخ المستقبل . فالتاريخ في محصلته النهائية هو حصاد اليوم من غرس الأمس الإنساني، فإذا عرفنا مسبقاً حصاد الغد بشكل مؤكد وجب علينا أن نعد اليوم بذور ذلك الحصاد ونتعهده ونرعاه .

لم يكن في الأميين الذين عاصروا فجر الإسلام من يحتفظ بوثيقة مكتوبة، ولم يكونوا يكتبون غير القرآن . فقد ورد عنه ﷺ : من كتب عني غير القرآن فليمحه . ويبدو أن الرسول قد خشي من اختلاط حديثة عند الناس بما يتنزل عليه من وحي . فظل القرآن منذ ذلك العصر الباكر محفوظاً في الصدور والسطور . أما الأحاديث الشريفة فقد ظلت في الصدور غير مكتوبة، وأصبحت تروى. فقد أدرك المسلمون قيمتها كمصدر أصيل مؤكد من مصادر الفقه والتشريع .

وحين تم للمسلمين جمع القرآن واعتماد مصحف عثمان ﷺ، ما عادوا يخشون تداخل الأحاديث في الوحي، أخذوا يفكرون في تدوين الأحاديث والسيرة والمغازي والتراجم بعدئذ وذلك خشية مما قد يداخل الأحاديث بالزمن من الأقوال المأثورة والحكم، ومما قد يدخله إليها أصحاب الهوى والأغراض . وبهذا دخلت الرواية في تدوين التاريخ الإسلامي .

وتختلف الرواية الإسلامية التي اعتمد عليها المسلمون في تدوين التاريخ اختلافاً جذرياً عن كافة الروايات غير الإسلامية السابقة لها واللاحقة، فقد ولدت الرواية الإسلامية بمناهجها . ارتبط التسجيل هنا بالدين، فالسنة هي الرافد الثاني للإسلام، وكان على جامعي الروايات أن يدققوا في اللفظ والمعنى ويتوخوا في التسجيل غاية الحذر . ووضع العلماء المسلمون الأوائل لأصل الرواية ضوابط الجرح والتعديل واعتدّوا باتصال السند . وفي اعتقادنا أن الرواية الشفهية في عالمنا المعاصر، إذا تهيأ لها الالتزام بتلك الضوابط الصارمة التي وضعها الأوائل، فإنها يمكن أن تصبح المقدمة على غيرها من الوثائق الأخرى المعتمدة في كتابة التاريخ، وتغدو المعيار الذي يمكن أن تقاس به كافة الوثائق المسجلة وغيرها .

اكتسبت الرواية الشفهية بحكم الجرح والتعديل واتصال السند مكانة خاصة لدى المؤرخين المسلمين في

الفترة التي شهدت بداية تسجيل تاريخهم، وأصبحت أمانة الكلمة المروية والثقة فيها تفوق الثقة في أي مصدر مسجل وأصبح التاريخ : "يروي على الحرف" أي يحفظ عن ظهر قلب .

أخذ طلائع المؤرخين المسلمين من كتاب السيرة على عاتقهم تسجيل كافة ما يتصل بشخصية الرسول الكريم، وجهدوا قدر طاقتهم في أن يكون تسجيلهم أميناً . لم يجلس أولئك النفر إلى مكاتبهم يحللون الوثائق المسجلة إنما راحوا يسيحون في البلاد يلتقون بكل من كان له صلة بأحداث العصر، شارك في الأحداث أم كان من سلالة المشاركين فيها أو من خدمهم ومواليهم، يستنطقونهم بعد إخضاعهم لمنهج الجرح والتعديل . وكانوا لا يأخذون عمن يدعو الناس إلى هواه' ولا من يكذب في أحاديثهم، ولا من شيخ خرف، ولا من سفيه . كان أولئك الرجال يتحرون في أشخاص الرجال ويبالغون في التحري، وكان أكثرهم يقوم بزيارات ميدانية للأماكن التي شهدت الأحداث والوقائع ويطابق بين الأقوال ومعطيات الأماكن .

ظل هذا المنهج معتمداً في كتابة العلوم الإنسانية عند المسلمين غير أن ضوابط الجرح والتعديل أخذت تتراخى قبضتها هوناً ما . فقد كان التمسك بها يكلف المؤرخ جهداً أكبر من جهد كتابته للتاريخ، أما اتصال السند فما عاد مع تنامي الزمن وبُعد الراوي زمنياً عن المصدر الأول ممكن التحقيق إلا بكثير من الجهد . وفي هذا الصدد يقول ياقوت بأنه ينقل عن المصادر بكل دقة وأمانة "سواء إن كان المنقول حقاً أم باطلاً فإن الصدق في إيراده" . وعلى الرغم مما تميز به ياقوت من صدق وأمانة لأنه كان غالباً ما ينقل عن صادقين ذوي معرفة وخبرة ودراية يثقون بما يدلون به إلا أنه وأمثاله من المعاصرين له واللاحقين، فارقوا – فيما نرى – المنهج الإسلامي القديم في كتابة العلوم الإنسانية بشكل أو بآخر، فقد جافوا روح المنهج، وإن لم يجافوا شكله . فروح المنهج تقتضي المقارنة والمقابلة والتحري، أما شكله فهو المتضمن تسجيل رواية الراوي . جاء في الفصل السادس من كتاب عبد الباسط بن موسى محمد العلموي المتوفي في دمشق (٩٨١هـ/١٥٧٣م) المفيد في أدب المستفيد الذي هو في حقيقته اختصار

لكتاب الدر النضيد المأخوذ عن تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم الذي كان قد ألفه ابن جماعة في ١٢٧٣م، القول بأن كل من يكتب كتاباً عليه مقابلة (مقارنة) كتابه بأصل موثوق : "فالمقابلة متضمنة للكتاب الذي يراد النفع به . قال عروة بن الزبير لابنه هشام ﷺ : كتبت ؟ قال : نعم . قال : عرضت كتابك ؟ أي على أصل صحيح . قال : لا . قال : لم تكتب . وقال الإمام الشافعي ويحيى بن أبي كثير : من كتب ولم يعارض، أي يقابل، كان كمن دخل الخلاء ولم يستنج" .

ظل المنهج الإسلامي في أمانة النقل معتمداً في كتابة التاريخ وطوّره آخرون بالوعي المكتسب، وظهر في البلاد الإسلامية مفكرون، في مقدمتهم ابن خلدون، ولم يرفضوا اتصال السند ولا ضوابط الجرح والتعديل، ولكنهم رأوا ضرورة عدم التقيد الصارم بهما إذا وافقت الكتابة المذكورة طبائع الأشياء . جاء عند هؤلاء النفر بأن تلك الضوابط الصارمة كانت ضرورية في تسجيل السنة وأخبار الرسول ﷺ لاتصالها بلب الدين، وكانت غايتها إفعل أو لا تفعل، أو هكذا كان دأب الرسول ﷺ ومنهجه الذي يجب على المسلمين أن يتبعوه ويتأسوا به . أما المسائل الإنسانية الأخرى المتصلة بلب الحياة العامة فليس المقصود منها الاتباع أو الترك، فنحن أمام أفعال تتطلب النقد وتخضع للتفسيرات العقلية .

وعلى الرغم من هذا التطور النظري الذي جاء به ابن خلدون والذي لم يستطع هو نفسه الاستجابة لمتطلباته، وعلى الرغم من أن الذين جاءوا بعد ابن خلدون تمسكوا به نصاً وإن لم يستطيعوا في الغالب العمل به، فقد ظلت أمانةالنقل السابقة لعصر ابن خلدون تسري في المؤرخين اللاحقين الذين كانوا يعتدون دائماً بذكر أسماء الرواة ويترجمون لهم أحياناً . قال المقريزي (ت ١٤٤٢م) عن مصادره في خطط مصر أنه استعان بالمصنفات الأدبية، وبالمعلومات التي عمل على جمعها من أساتذته ومعاصريه من العلماء، واستند على مشاهداته الخاصة ومعايشته لأحداث عصره : "أما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثني إلا أن لا يُحتاج إلى تعيينه أو أكون قد

أنسيته، وقلّ ما يتفق ذلك . أما ما شاهدته فإني أرجو أن أكون، ولله الحمد، غير متهم ولا ظنين" .

ويمكن لنا هنا أن نقول أن الأصل الذي ثبتت عليه كتابة التاريخ الإسلامي هو الأمانة والصدق، فقد كان كل من يكتب في التاريخ الإسلامي يقيد نفسه بهما. فإذا أتيح للمؤرخ أن يستمد معلومته من شاهد عيان يسميه للقارئ فقد كان ذلك أدعى له من الرجوع إلى أصل مكتوب، أما إذا أتيح للمؤرخ أن يكتب عن معايشته للأحداث التي شاهدها أو اشترك فيها فإن على من يريد الاعتماد عليه أن يستوثق نقدياً من صدق ذلك المؤرخ ثم يأخذ منه ما يشاء . يقول السخاوي إن كتاب الصولي : تاريخ الوزراء "كتاب فاضل" لأن مؤلفه كان شاهد عيان لكثير من الحوادث التي يأتي على ذكرها في مصنفه هذا . أما الصولي نفسه فيقول عن منهجه في كتابه "أخبار الراضي" والمتقي فيما كتبه عن الخليفة الراضي : "ما حكيت من ألفاظه التي جرت وما أحكيه من كلامه بعد، فهو كما أحكيه أو شبيهه أو مقارب، وإذا كنت لا أقدر أن أحفظ لفظه فأنا أحفظ معناه" .

إلى هذا الحد البعيد بلغت الدقة في الرواية الشفهية في تراثنا التاريخي فلا ريب أن كانت الرواية الشفهية أصدق من غيرها . أما الروايات الأخرى فتقارن بها فهي التي يعول عليها في هذا الصدد . وثق المسلمون - حتى العامة - في الرواية الشفهية أكثر من المسجلة، وكانوا يؤثرون التعليم الشفهي على العلم المحصل من الكتب، ويعتقدون - صواباً - أن الأخذ عن معلم خير من الأخذ عن كتاب .

اتسعت مع الزمن الكتابة التاريخية لدى المسلمين فتطورت ثم ترهلت وذبلت بعدئذ، شأنها شأن المجتمعات الإسلامية . وحين وفد الغرب مستعمراً للشرق أو مهيمناً عليه بصورة أو بأخرى، قدم مؤرخوه لأهل البلاد المغلوبة مناهجهم فتلقفوها على علاتها . وللأسف فقد أنكر أكثر الرعيل الأول من المؤرخين العرب والمسلمين الوثيقة الشفهية، وغدت الوثيقة المكتوبة عندهم أقوى من الوثيقة المنطوقة، فجانبهم الصواب حين أغشاهم بريق الغرب . فالمؤرخون الغربيون - حين أنكروا الوثيقة المنطوقة - استجابوا لمناخهم الثقافي . فالرواية الشفهية على امتداد

للراوي فيها إلا فضل النقل . وبناءً على هذا يمكننا القول بأن مثل هذه الرواية الشخصية لشاهد العيان ليست من المتواترات إنما هي خبر من الدرجة الأولى يجب على المؤرخ أن يتعامل معه بعد تمحيصه ونقده بما هو أهل له من الاعتماد .

تعد الشهادة الشفهية، أو الخبر من الدرجة الأولى، مهم تماماً في دراسة التاريخ المعاصر أو التاريخ الحي الماثل . والشهادة الشفهية مهمة بصفة خاصة حين تتصل بتاريخ الخليج العربي والأقطار الأخرى التي ينشط فيها فعل التاريخ بالطفرة الاقتصادية الكبيرة والقفزات الواسعة في المجالات التعليمية والحضارية المختلفة خاصة في المجال التعليمي .

ولربما جاز لنا هنا أن نثبت شهادات بعض الشهود العيان التي وقفت عليها عرَضاً . فقد حدث أن أبديت لأحد الزملاء من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإمارات إعجابي باخضرار بلدة العين . وكان مما أثار دهشتي إجابته بأنهم قبل امتداد هذه الخضرة ما كان لهم أن يحتسوا الشاي في منازلهم إلا مخلوطاً بذرات الرمال التي كانت تجد طريقها إلى داخل الكوب . وحدثني صديق آخر من المهتمين بالدراسات الخليجية من العاملين في مجال حفر الآبار، أنه حين تم تفجير أول بئر ارتوازية في العين تدفقت عليهم مع تدفق المياه كل البادية برجالها وإبلها وطيورها وثعابينها وعقاربها وكافة هوامها . ولربما نستطيع أن نثبت شهادة عرضية ثالثة لشاب سألته عن شارع معين في أبوظبي، وكنت أدرك أنه أقام في هذه البلدة لفترة طويلة، فأجاب بأنه لا يعرفه لأنه غادر أبوظبي في الفترة الأخيرة لمدة سنتين عاد بعدهما ليجد أن كثيراً من ملامح المدينة قد تغير تماماً .

وعليه نعتقد أن الشهادات الشفهية لشهود العيان التي قد لا تجد سبيلها للتسجيل مهمة يجب على المؤرخ، خاصة حينما يدرس الجوانب الحضارية أو الاجتماعية أو العمرانية المعاصرة، أن يسعى إلى تسجيلها . فكل جملة من الجمل الماضية التي جاء بها الشهود المذكورون تصلح لأن تقوم عليها خطة بحث لموضوع في التاريخ أو لموضوعات عدة .

أطلقنا على مثل هذا الخبر المباشر صفة الخبر من الدرجة الأولى، وهناك – في تقديرنا – خبر من الدرجة الثانية لا يدخل أيضاً في دائـرة المتواتـرات. ونقصد بالخبر من الدرجة الثانية الرواية التي يرويها من لم يدرك الحدث ومن لم يساهم فيه ولكنه وجده عن والده أو جده أو أحد أقربائـه أو معارفه أو جيرانـه. ونستطيع أن نعـامل الخبـر من الدرجة الثانية معاملة الخبر من الدرجـة الأولى وذلك بإضافة شـرطي اتصـال السـند والتحقق مـن أهـداف الـراوي الأول لروايته.

أما الخبر من الدرجة الثالثة فإننا نطلقه على ذلك الخبر الشائع على ألسنة الناس الذي لا يستطيع الراوي أن يثبت مصدره، فيمكـن أن نعـده مـن المتواترات. فهو يختلف عـن الخبرين من الدرجة الأولى والثانيـة في أمريـن هما: عمق الامتداد الزمنـي للخبر، ثـم عدم معرفتنا للشخصية التي روت الخبـر أولاً. واعتماداً علـى هـذا الـرأي ندخـل الخبر الثالث في دائرة المتواترات التـي هي في جملتها ذكريـات مـن المـاضي انتقلت عبر ذاكرة المجتمع على ألسنة الناس إلى الحـاضر. وفـي اعتقادنـا أن مثل هـذا الخبـر مـن الدرجـة الثالثـة لا يجوز اعتماده مصدراً للتاريخ ما لم تؤيده شواهد أخرى تكون قد أثبتت صدقـهـا. فالمؤرخ لا يتفق له أن يسبغ ثقة مسبقة على نوع من الوثائق دون النـوع الآخـر، فـهو لـن يـأخذ الوثيقـة المنطوقـة علـى عواهنها ولن يقبل الوثيقة المسجلة على علاتها.

وحيـن نتجـاوز الخبـر بدرجاتـه الثلاث ونخرج إلى المأثورات التـي هـي لـب المتواتـرات، يتحتـم علـى المـؤرخ أيضاً أن يجري مقارنة وثيقتـه المسجلة بهذه المأثورات وينبذ منها مـا يتعـارض مع روح هذه الروايات. ولا مندوحة هنا مـن القـول بـأن كافـة هـذه المـأثورات وجدت طريقـها إلـى الحفظ في صدور الرجال وعاشت فيها أجيالاً بعد أجيـال لأنـها تمثـل تعبيـراً صادقـاً للنسـيج الاجتماعي في المنطقة المعينة، فهي – في نهاية الأمر – التي تميز هذه المنطقة عن غيرها مـن المنـاطق الأخـرى. ففـي هذه المأثورات تسود قيم المجتمـع التـي يؤمن بها أو التي يتطلع إلى تحقيقها.

وفي الحقيقة فإن كل قول أو فعل يرثه مجتمع ما من الماضي يحمـل دفقاً من المعلومات عـن ذلـك المـاضي حتـى

نلحق بهذه الغنائيات أيضاً القصص الشعري الذي صاغته قرائح أمية مبدعة أخذته عنهم طوائف أخرى راحت عبر الزمن تلقيه في الأسواق والموالد والمقاهي والأماكن العامة .

وفي الحقيقة فإن مثل هذا القصص الشعري ليس مقصوراً على المناطق العربية والأفريقية التي ينتشر فيها انتشاراً واسعاً فقد عرف في أوروبا خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما عرف أيضاً في الولايات المتحدة الأمريكية وساد لفترة حتى بعد ظهور الصحف وتزايد عدد القراء . فقد كانت كل فاجعة تقع في ذلك المجتمع وكل أخبار الفيضانات والعواصف، لا بل حتى حوادث تصادم القطارات تصيغها القريحة الشعبية شعراً ويروى في الأماكن العامة . ويرتبط بهذا النمط أيضاً كل القصص والحكايات التي تسود المجتمع ، والأغاني الشعبية للأفراح، والحكايات الشعرية والأهازيج التي تهدهد بها الأم صغيرها عند النوم أو تحكيها الجدة للصغار، فهذه المتواترات جميعها هي أوعية تصب فيها رموز هامة تعكس القيم الفنية والجمالية والأخلاقية السائدة في المجتمع ، وتحدث عن آماله وطموحاته، وتكشف للمؤرخ العديد من النواحي ذات الطابع المحلي، وتمثل فوق هذا وذاك، سفراً متكاملاً من التاريخ الثقافي للمنطقة . وفي اعتقادنا أن كل قصص المجتمع، مهما كان نوعه، حتى ذلك الذي تخالطه الأساطير والماورائيات وقصص الجن والأشباح والغول والعنقاء، وقصص الحيوانات المختلفة التي قد تسود هذه الحكايات يجب أن تنال اهتمام المؤرخ . فكل تلك الحكايات وما فيها من الجن والأشباح والحيوانات، هي في نهاية الأمر قصص شارحة أو مفسرة من حيث جوهرها ترمي إلى شرح علة أو تثبيت غاية قيمية دفينة في وسط النسيج الخرافي وتحدثنا في بعض جزئياتها عن بقايا متخلفة عن مراحل ثقافية ماضية لعلها كانت واسعة الانتشار في ذلك المجتمع فيما مضى من الزمن . ويقع على المؤرخ حين يقارن الوثيقة المسجلة مع مضامين هذا التراث ويجد أنها لا تتسق مع روحه أن يتردد كثيراً في قبول تلك الوثيقة .

أما الأمثال والألغاز السائدة في المجتمع فهي ذات قيمة كبيرة في كتابة

التاريخ، بل يمكننا القول بأن المثل يقوم في الذهنية الشعبية مقام التاريخ لأنه يربط الماضي بالحاضر . فالأمثال في حقيقتها جمل حفظتها ذاكرة المجتمع وتظهر عادة للتعبير عن وضع حاضر كان له نظيره في الماضي .

والخاصيتان الأساسيتان في المثل هما الطابع التعليمي من حيث الموضوع والاختصار من حيث الأسلوب أولاً ثم التركيز على الهدف الذي هو تعليمي الطابع . وأبرز ما في المثل أنه ليس نتاج ذاكرة جماعية إنما هو صياغة عقل فرد واحد نتيجة لموقف معين . ولا يستطيع المؤرخ أن يحدد الزمن الذي ولد فيه المثل بشكل محدد بل يكفيه أن يعين لذلك شريحة زمنية واسعة، فالعبرة للمؤرخ ليست بالزمن الذي ولد فيه المثل ولكن في استشعار روح المثل ومضمونه مما يكشف عن عمق ثقافة المجتمع ونوعية القيم والمبادئ فيه، وغالباً ما يشير لنا المثل عن شيء من حكمة المجتمع، وربما كشف لنا عن صور من بيئته وإيكولوجيته . فالحيوانات الأبرز في أمثال نيجيريا على وجه الخصوص هي الأسد والضبع، وفي السودان هي الجمل والصقر والثور والتيس، أما في منطقة الإمارات فهي الصقر والسخلة والتيس، والكلب والدجاجة .

رفض المؤرخون الأوروبيون، حتى حديثاً، الرواية الشفهية بحجة البدائية كما أسلفنا، كما رفضوها بحجة أن تلك الروايات الشفهية لا تكاد تحمل من أصلها الذي انطلقت منه شيئاً، وإنها – في أحسن حالاتها – لا تصلح إلا لكتابة التاريخ الثقافي . ولعلنا قد قمنا من جانبنا بتفنيد تلك الحجج الواهية . وهناك ذريعة غريبة ثالثة لرفض المتواترات في كتابة التاريخ والادعاء بأنه على المؤرخ أن لا يلجأ إليها إلا مضطراً . يقول هؤلاء أنه إذا كان لازماً أن يقبل المؤرخ شهادة الوثيقة المروية فعلية أن ينظر إليها على ضوء الوضع السياسي والنسخ الاجتماعي "الراهن" للمنطقة . احتج هؤلاء المؤرخون في هذا الإطار بأن الرواية الشفهية متحيزة دائماً وذلك لأن التحيز مغروس بالضرورة في كل نسيج اجتماعي أو سياسي في منطقة ما، وأن الأمي أشد ما يكون تحيزاً من المتعلم، مما يجعل الحقيقة غير موجودة في المتواترات، صناعة قرائح الأميين . وعلى هذا قامت حجة هؤلاء النفر على

أن الاعتماد على الرواية الشفهية يجب أن لا يكون كاملاً شاملاً بمعنى أن لا يمكن لبحث كامل في التاريخ أن يقوم على الرواية الشفهية بمفردها .

أما إذا لم تتوافر للمؤرخ وسائل قياس ومقارنة للمتواترات في المجتمع المعني فعليه أن يقيسها بالمتواترات التي تسود مجتمع الجيران ويسبرها بما يتمكن من الحصول عليه من الموجودات الآثارية وآثار الظواهر الطبيعية، هذا بالإضافة إلى الاستنارة بآراء المثقفين والمستنيرين في المجتمع المعني حول تلك الروايات . وعلى المؤرخ – قبل هذا كله – أن يسقط من حسبانه أية رواية شفهية تظهر تناقضاً صريحاً في نسيجها الداخلي، أو تعارضاً مع حقائق ثابتة، أو مصادر موثوق بها . وعلى المؤرخ أن يستبعد مثل هذه الوثيقة الشفهية من مجال صناعة التاريخ ويضعها في مجال التقاليد الفلكلورية . ولا يخلو هذا الرأي في تقديرنا من وجاهة ظاهرية لأنه يطالبنا بالتشدد في نقد الرواية الشفهية قبل استخدامها ويحدد للمؤرخ وسائل النقد التي يجب عليه الأخذ بها . ونحن إذا كنا نوافق تماماً على مسألة التشدد في النقد لا نوافق أبداً على تحديد وسائل النقد للمؤرخ الذي يملك – في ظننا – وسائله الخاصة بالنقد التي تلائم كل وثيقة على حده . كما أننا لا نوافق أبداً على قصر التحيز على الرواية الشفهية دون سواها من المصادر التاريخية .

ونعتقد بدورنا أن الرواية المسجلة أدعى من غيرها وأقرب للتحيز إذ يجد الراوي وقتاً كافياً لتأنيق روايته، بل إن كاتب الوثيقة ربما حاول بما تهيأ له من علم أن يعمل في تأنٍ على إخفاء آثار التحيز ما أمكنه ذلك . وعليه نجد أن مثل هذا الإنكار للدليل الشفهي فيه تحامل واضح على المعرفة الذاتية بحسبان أنها بنيت على الاعتبارات الشخصية، وهي – بهذه الكيفية – تعد في اعتبار البعض أدنى مستوى من الموضوعية . وفي اعتقادنا أن التعامل مع المصادر في صناعة التاريخ هو أمر خاص بصفة كاملة بالمؤرخ الذي يختار وسائله ويحدد مناهجه وصولاً إلى التفسير الصحيح لمصادره المحدودة .

فلكل مصدر في التاريخ، شفهياً كان أم غير ذلك، تحيزه ومحدوديته التي يتطلع المؤرخ أن ينفذ بوسائل النقد إلى ما وراءها . فالمؤرخ لا يعرف من أية

وثيقة مكتوبة كانت أم شفهية إلا جانباً محدوداً من الحقيقة التي يعمل على استجلائها باستثمار ملكاته النقدية واستئصال كل ما قد يوجد في الوثيقة من تحيز أو زيف أو كذب . فالماضي الذي يعالجه المؤرخ من خلال وثيقة ما، استعصم عنا بستار الزمن الذي ليس لإعادته من سبيل، وبالإنسان الذي رحل عن هذا العالم وليس لاسترجاعه من سبيل، بل إن الأرض ذاتها، ثالثة الأثافي في البناء التاريخي، متغيرة بفعل عوامل التعرية وبفعل الإنسان . ولا يبقى للمؤرخ إلا أن يتعامل مع كل المتغيرات من خلال محدودية المصدر، أياً كان شكله أو مضمونه .ويدرك المؤرخ الناقد قبل غيره أن التحيز مرتبط بكل خبر مروي، وبكل تاريخ مكتوب، ويدرك أيضاً أن عليه أن يحارب في نفسه - جهد استطاعته - هذا التحيز .

ولربما أنكر جماعة المؤرخين أن يكونوا متحيزين، وهذا الإنكار حق مكفول لهم بالوعي ولكن ماذا عن اللاوعي ؟ ولنضرب لذلك مثلاً . إذا كتب مؤرخ سوداني أو صيني عن غوردون باشا، ذلك الرجل الذي حمل راية الإمبراطورية البريطانية وغرسها مظفرة فوق هضاب الصين، وفي غابات قلب أفريقيا، وخاض من أجل ذلك في دماء الأبرياء هنا وهناك، وداس على جثثهم، وعبث حتى بمقابر زعمائهم، ألا يرى فيه مثل هذا المؤرخ مستعمراً لئيماً ؟ وهل يرى هذا الرأي ذاته المؤرخ البريطاني أم يرى في الرجل فاتحاً عظيماً ؟ وشتان ما بين الرأيين . وهنا لا أجد - في الوعي - تحيزاً عند أي من هؤلاء المؤرخين المذكورين جميعاً فكلهم على صواب . ويمتد التحيز في التاريخ حتى إلى اللغة التي يستعملها المؤرخ في التعبير عن التاريخ غير المتحيز، فكثير من الكلمات التي يستعملها المؤرخ متحيزة، يتحدث كل المؤرخين عن الاستعمار وهي الكلمة التي تعني بنص الكتاب الكريم إرادة الإعمار .

فهل كان امتداد الرجل الأبيض في بلادنا العربية والأفريقية وغيرها استعماراً أم استخراباً ؟ وهل يستطيع القارئ أن يتبين غرض المؤرخ إذا كتب عن الاستخراب البريطاني بدلاً من أن يقول الاستعمار البريطاني للسودان ؟ ويذهب تحيز الكلمة بعيداً إلى درجة لا يمكن لنا سبر غورها إلا على ضوء أيديولوجية وفكر المؤرخ الذي يظن، ونوافقه الظن،

بأنه غير متحيز، فهناك كلمات يستعملها مؤرخ مثل : تحرير ونضال وجهاد، ويستعملها مؤرخ آخر فيقول : إرهاب واعتداء واغتصاب .

تواتر حتى منتصف هذا القرن الإنكار المتكرر لكثير من المؤرخين الغربيين للوثيقة الشفهية والتاريخ الذي يقوم عليها . تبلور في أوساطهم رأي عام يقضي بضرورة التخصص . وأصبحت من ثمة دراسة الحضارات البدائية (أو الشفهية) للأنتروبولوجيين والفلكلوريين بينما التزم المؤرخون كتابة تاريخ الأمم الأرقى والمجتمعات التي تكتب، والوثيقة المسجلة . ومع كل ذلك الإنكار فقد ازداد منذ العقود الأولى من هذا القرن المنصرم اعتماد الحكومات الغربية الاستعمارية على التاريخ الشفهي القائم على الوثيقة الشفهية !

أخذ الموظفون الرسميون العاملون في المستعمرات ومناطق النفوذ ينقبون في التاريخ غير المكتوب لهذه البلاد بهدف تفهم دوافع الإنسان في هذه المناطق ودراسة اتجاهاته . وراح هؤلاء الموظفون يسجلون الشهادات الشفهية، ويتدارسون متواترات القبائل والجماعات، ويعالجون على ضوء هذا التاريخ المشكلات الإدارية والسياسية التي تعترضهم في المستعمرات . ونشأ جراء ذلك نوع من التاريخ أقامه رسميون لا يتمتعون بالمزايا اللازمة لصناعة التاريخ . ففي منطقة الخليج العربي، على سبيل المثال، لدينا أسماء بارزة أصبحنا للأسف نعتمدها في كتابة تاريخ الخليج والجزيرة العربية دون تردد حتى غدت مصادر عامة في كل بحث للتاريخ في هذه المنطقة . فكُتُب مايلز وديكسون وولسون فلبي كلها كتب تقوم على الوثيقة الشفهية . أما إذا توغلنا في وثائق بومباي والمختارات منها التي هي من أهم مصادر لوريمر، أشهر المصادر في تاريخ الخليج العربي، فنجد أنها تقوم على قاعدة شاملة من التاريخ الشفهي مع إضافات نادرة من التقارير العسكرية والإدارية .

أما إذا قيض لنا أن نتعامل مع الوثائق الخاصة بوكالات الخليج ووثائق الوكلاء الوطنيين "المحليين" فنجد أنها قد اعتمدت تماماً على الرواية الشفهية . تبدأ دائما موضوعات هذه الوثائق بالقول : "خلال زيارتي إلى منطقة . . . التقيت شيخها . . . قال لي . . . وقلت له . . . وحدثني أيضاً الوكيل

الوطني . . . وأجاب حين سألته . . . وجاءني طبيب البعثة الأمريكية الذي كان في زيارة منطقة . . . وقال أنه عرف من . . . أن . . ." وهكذا يجد المؤرخ نفسه غارقاً في خضم من الوثائق الشفهية، أو إن شئت قل التاريخ الشفهي .

أما كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزيرة العربية والتي هي عمدة في تاريخ هذه المنطقة فهي في تقديرنا لا تزيد عن تاريخ شفهي صاغه هؤلاء الرحالة عن ألسنة الذين قابلوهم أو رافقوهم مع خليط من التجارب الشخصية والتحامل المقصود وغير المقصود .

وهكذا أصابت الوثيقة الشفهية والتاريخ الذي يقوم عليها بصفة شاملة قبولاً لدى الحكومات الاستعمارية خاصة في بريطانيا وفرنسا واعتماداً متنامياً دفع بالأكاديميين الغربيين بعدئذ إلى ولوج هذا المضمار منذ الأربعينيات . دخل اعتباراً من تلك الفترة عدد من المؤرخين المحترفين الأكاديميين إلى مضمار الوثائق الشفهية في أفريقيا بصفة خاصة وراحوا يغشون تلك المناطق من القارة "المظلمة" يتلمسون الحقائق اللوجستية في حياة الناس يتلقفونها من شفاههم وأصابوا في هذا المضمار نجاحات كبيرة رغم التحفظ الذي كان يمارسه العديد من الرواة الوطنيين في كثير من الأحيان، فقد كان البعض من هؤلاء الأخيرين يقولون في غير مواربة : أنتم أيها الأوربيون لا تحدثونا بأسراركم فلماذا نحكي لكم أسرارنا ؟ .

ومع بداية الخمسينيات جرى في كافة الجامعات الغربية الاعتراف بالتاريخ الشفهي والرواية الشفهية وعقدت في العديد من تلك الجامعات الندوات والمؤتمرات الخاصة بهذا التاريخ . واستعان هؤلاء المؤرخون بالرواية الشفهية للشاهد العيان ولكنهم اعتمدوا بصورة أكبر على المتواترات، ورغم الاختلاف بين هذين الشكلين المذكورين إلا أنهما أصبحا يعرفان بالتبادل بالتاريخ الشفهي **(Oral Histrography)** .

نخلص إلى القول بأنه يجب علينا أن نعتمد في تاريخ الخليج والجزيرة العربية على الوثائق الشفهية والمتواترات ونجعل منها، بعد نقدها، الأساس الذي نسبر به الرواية المسجلة، وذلك لعدة اعتبارات عامة وخاصة .

تتركز وظيفة المؤرخ في أمرين أساسيين وهما : رواية ما تيسر له من تاريخ التطور البشري، وحراسة تراثه القومي . ونجد أن تراثنا العربي الذي يتحتم علينا حراسته يقوم على الرواية الشفهية، وكما نجد كذلك ملكة الحفظ في هذه المنطقة قديمة متوارثة أكدها فينا بعدئذ الدين الإسلامي .

ومن الاعتبارات العامة أيضاً أن قدراً يسيراً فقط مما حدث في ماضي هذه المنطقة قد تمت روايته للرسميين البريطانيين وللرحالة الأجانب المختلفين، وأن جزءاً فقط مما تمت روايته، وهو الجزء الذي يهتم بخدمة أهدافهم، قد جرى تسجيله، وأن جزءاً فقط مما وجد طريقه إلى التسجيل قد تم حفظه وفهرسته وحفظته لنا دور الوثائق . ونجد أن اهتمامنا كمؤرخين عرب أو خليجيين تتركز في مجالات ربما ما كانت من اهتمامات المؤرخين الرسميين . وعلى ذلك نجد أن "توطين" المعلومة أميز لخدمة أهدافنا التراثية وأوفق لنا من التقاطها من كتابات الآخرين . ولا مندوحة من القول هنا أننا نعرف الكثير من التفاصيل في التاريخ الإداري والسياسي للخليج من وثائق الرسميين البريطانيين وغيرهم ولكننا نجهل جهلاً يكاد يكون مطبقاً الحياة الاجتماعية التي لا نكاد نجد لها وثائق إلا من الرحالة الأجانب، ومثل هذه المعلومة، كما ألمعنا سابقاً، يكاد يخنقها التحيز .

وتختلط الاعتبارات الخاصة مع العامة حيث نجد أن التاريخ الشفهي للخليج الذي سجله لنا هؤلاء المؤرخون الرسميون كانت له أهدافه التي تتركز في إجراء السياسة الإدارية والسياسية في المنطقة وإهمال ما دون ذلك . فهذه الوثائق - على وفرتها - ناقصة مبتورة . وعليه يقع على مؤرخي الخليج أن يتعاملوا ما وسعهم التعامل مع الوثائق الشفهية والمتواترات الخليجية بعد نقدها لسد الفراغ وتصحيح المكتوب . ونضيف إلى ذلك أيضاً أن اختلاف الدين واللغة وعدم الثقة في الإداري البريطاني وغيره من الأجانب ربما دفعت البعض من الرواة إلى الإدلاء بشهادات مغلوطة أو ناقصة .

أما أهم الاعتبارات جميعاً التي تجعلنا نتمسك بالرواية الشفهية في كتابة تاريخ الخليج فهي أن شكل تاريخ الخليج يتبدل بسرعة هائلة وذلك بما

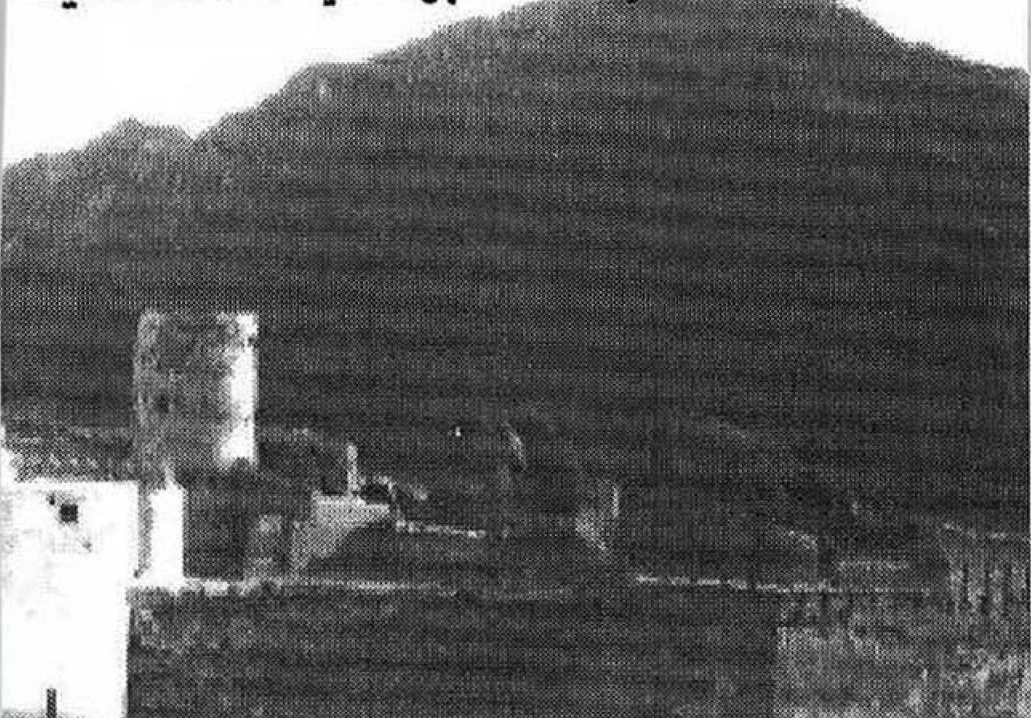
أسبغ الله على المنطقة من نعمة الثروة المادية وعلى قادته من فضل الإنفاق، مما أدى إلى تسارع حضاري وعمراني. ويحتاج هذا التبدل السريع إلى ملاحقة الأحياء الذين عاشوا هذا التطور المتلاحق وتسجيل شهاداتهم حتى لا ينفلت مع التقدم السريع زمام تراث المنطقة فتنقطع عن جذورها.

نختتم بالقول بأننا حين نضع ثقتنا في الوثيقة الشفهية نسبر بها غور كل وثيقة أخرى لا نفعل ذلك جزافاً ولا تحيزاً إنما لثقتنا في منهج المؤرخ الذي يجد أمامه دليلاً حياً يقوم شاهداً عياناً على عصره ومجتمعه. ونجد أن فن هذا المؤرخ التحليلي يقترب إلى حد كبير مما يقوم به العالم النفساني أو القاضي لأنه يستطيع أن يزيد في معلوماته ويستوثق من صدقها بالمقابلات والأسئلة وإعادة الأسئلة بأساليب مختلفة. ونثق أيضاً في وجوب أن يتمتع هذا المؤرخ الذي تقوم مصادره على الوثيقة الشفهية بما كان يتمتع به راوي الحديث الشريف من أربعة: العقل والضبط والإسلام والعدالة ليكون صادقاً - كما يقول الكافيجي - في أمر الدنيا والدين. "ولتزداد الرغبة في تاريخه والاحتراز من المجازفة والافتيات فيحصل له الأمن من الوقوع في الضلالة والإضلال". ونثق أيضاً عوداً على بدء من أن المؤرخ لن يأخذ علمه من سفيه ولا من شيخ خرف، ولا ممن يدعو الناس إلى هواه، ولا ممن يكذب أحاديث الناس. وأنه حين يبدأ في تسجيله للرواية الشفهية يهتم بتسجيل اسم الراوي وعنوانه وسنه ونسبه ووضعه الاجتماعي، كما يمكن له أن يثبت أية ملاحظات عن شخصية الراوي وسيكولوجيته، هذا بالإضافة إلى إثبات مكان المقابلة وتاريخها. ولا يبقى لنا بعد كل هذا الاحتراز إلا أن نقيس كل وثيقة أخرى بوثائقنا الشفهية التي يتأكد لنا بالنقد أنها صادقة، وأنها ستخدم هدفنا في كتابة تاريخ هو أقرب للصواب مما عداه.

الدكتور عبد العزيز عبد الغني إبراهيم
مركز زايد للتراث والتاريخ

السياسة الاقتصادية البرتغالية

طبيعة السياسة البرتغالية الاقتصادية



١٣٠ - الوثيقة

في الخليج العربي وآثارها
١٥٠٧ - ١٦٦٢م



ـــة حتى منتصف القرن الســادس عشـر

بقلم : الدكتور صبري فالح الحمدي

أعطت أغلب الدراسات التاريخية المنشورة التي تناولت الغزو البرتغالي للخليج العربي والذي يمثل بداية عهد الأطماع الأجنبية للمنطقة، الأولوية للعامل الديني في تحديد مسارات السياسة البرتغالية، كما ركزت في معظمها على الجوانب التاريخية والعسكرية لكنها أغفلت الاقتصادية منها رغم أهميتها، وتعد هذه الدراسة محاولة متواضعة في تسليط الضوء على طبيعة السياسة الاقتصادية التي انتهجها البرتغاليون والولوج إلى معالمها في الفترة موضوع البحث، كونها لا تقل أهمية عن الروح الصليبية التي برزت في مجمل فعالياتهم العسكرية وإجراءاتهم التجارية، مع التذكير بأن هذا الغزو البرتغالي يعد ثاني موجة استعمارية غربية تعرض لها الوطن العربي بعد الحروب الصليبية .

استغل البرتغاليون حالة الضعف والانقسام التي كانت تعاني منها القوى المحلية العربية وافتقادها للوحدة في بداية القرن السادس عشر، بهدف فرض سيطرتهم على الطرق البحرية واحتكارهم للتجارة الشرقية، إذ لم تواجه القوات البرتغالية حين غزوها سواحل البحر الأحمر والخليج العربي مقاومة من القوى الإسلامية الكبرى، سوى من دولة المماليك التي تصدت لهم عسكرياً خلال السنوات الأولى من وصولهم إلى الهند، وكان اصطدامهم أكثر وضوحاً مع القوى المحلية الإسلامية[١] ، الأمر الذي مكنهم من الاستحواذ على تجارة الهند الشرقية واحتكارها طيلة القرن السادس عشر[٢] .

كانت الخطة البرتغالية التي وضعها القائد ألفونسو البوكيرك الذي يعد المؤسس الحقيقي للإمبراطورية في الشرق، تقوم على أهمية إحكام السيطرة على منافذ التجارة البحرية متمثلة بالبحر الأحمر وعدن وجنوب الجزيرة العربية وسواحلها والبحرين والقطيف والبصرة، وتحقيق الأهداف الرئيسية للبرتغاليين في تحطيم تجارة المسلمين واحتكار التجارة الأوروبية - الآسيوية وتحويلها إلى طريق رأس الرجاء الصالح[٣]، ومنع العرب من مزاولة مهنة النقل والحمل والتي أصبحت احتكاراً خالصاً لهم طيلة قرون عديدة، منطلقاً من دافع المنفعة والمصلحة المادية بالدرجة الأولى[٤] .

أدرك البوكيرك ضرورة احتلال المواقع الاستراتيجية في الخليج العربي بغية احتكار تجارة التوابل الشرقية[٥] وفي المقدمة منها هرمز التي تتحكم في مدخل الخليج العربي، إلى جانب كونها تمثل مصدراً مالياً وذات ثراء كبير بما تأخذه من الضرائب والجمارك والإتاوات من المناطق المجاورة، وما تفرضه من ضرائب على السفن والقوارب البحرية التي تعمل في صيد اللؤلؤ، تستخلصها في كل موسم حيث تفد هذه المراكب إليها[٦]، وللدلالة على أهميتها التجارية ما أوردته الوثائق البرتغالية بالإشارة إلى ما توفره هرمز من مداخيل، ذكر منها ضريبة الولاء المؤداة من طرف هرمز ومداخيل الجمارك التي تؤديها عن سلع السفن المقبلة من الهند والقوافل التي يرسلها الشاه إسماعيل الصفوي ملك فارس، أو التي تأتي من البصرة، إضافة إلى الضرائب المؤداة عن تجارة الخيول[٧] .

قام القائد البرتغالي وقواته بمهاجمة هرمز عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م

وطلب من ملكها سيف الدين الاستسلام لكن الأخير رفض بشدة، وأعقب ذلك وقوع معركة كبيرة استخدم فيها البرتغاليون كل أساليب القتل والتدمير الوحشية والتي لم يألفها السكان من قبل، وانتهت بقبول ملك هرمز ووصيه الشيخ خوجة عطار شروط الاستسلام، وهي دفع ضريبة سنوية قدرها خمسة عشر ألف دينار أشرفي[٨] ذهب سنوياً، والخضوع لملك البرتغال وبناء قلعة في الجزيرة[٩] .

وزيادة على هذا يتوجب على كل سفينة هرمزية أن تمتنع عن الإبحار في مياه الخليج العربي دون ترخيص من الأسطول البرتغالي، وينقل لنا الرحالة البرتغالي تكسيرا (Teixeira) وصفاً لدخول البرتغاليين ميناء المدينة بقوله : "دخل البرتغاليون ميناء هرمز وسط نيران ملتهبة قضت على أسواق المدينة التي كانت بحق أغنى أسواق العالم بمنتوجات الشرق من التوابل والمنسوجات الحريرية وقاعدة دولية مهمة في تجارة اللؤلؤ[١٠]"، وتبع ذلك ملاحقتهم للسفن العاملة في المنطقة، الأمر الذي ترك نتائجه السلبية على مجمل التجارة من وإلى الخليج العربي[١١] .

بعد انتصاره البحري على هرمز أمر البوكيرك بأن تعفى البضائع التي تأتي للبرتغال من الضرائب، وأن لا يدفع البرتغاليون أكثر من الوطنيين على البضائع التي يشترونها في هرمز والموانئ التابعة لها، كما وضع قيوداً على حركة السفن العربية العاملة بالتجارة، وبذلك طغت الأهداف الاقتصادية على السياسة التي اتبعها البرتغاليون إزاء سكان الخليج العربي ومنذ وقت مبكر، لدرجة أن الأولين انصرفوا نحو التجارة حتى أن أولئك الذين كانوا قباطنة أصبحوا تجاراً[١٢] .

ثم توجه القائد البرتغالي وقواته لمهاجمة مسقط التي كانت تعد الهدف الثاني في خططه الحربية، لأنها تمثل المصدر الرئيسي للتجارة مع مملكة هرمز فضلاً عن أهميتها كقاعدة عسكرية، وقد ناشد سكان المدينة البوكيرك وقف القتال، إلا أن الأخير طالبهم بدفع جزية سنوية مقدارها (١٠٠,٠٠٠) أشرفي فدية للمدينة وأمهلهم يوماً لدفعها، ولما لم يتمكن السكان من دفع المبلغ أعطى القائد البرتغالي أمره بإحراق المدينة وتدمير مساكنها، وأعقب ذلك مهاجمته بلدتي خورفكان وصحار ونهبهما، ثم إقدامه على تقطيع آذان وأنوف السكان

الذين عانوا الأمرين من جراء سوء المعاملة البرتغالية[١٣] .

شرع البوكيرك في انتهاج سياسة اقتصادية قائمة على فرض الضرائب الباهظة على سكان المدن الخليجية التي أصبحت واقعة تحت النفوذ البرتغالي . بعد تدميرها، إلى جانب إلحاقه الخراب بالمراكز التجارية والبحرية في الخليج العربي عن طريق إحراق الموانئ بما فيها من السفن الراسية، وحرمان السكان من حق المتاجرة باتباع وسائل النهب والقرصنة، ومنع أية سفينة عربية من ممارسة التجارة دون إذن رسمي بالملاحة من البرتغاليين، وفرض الرقابة على السفن بواسطة الحاميات العسكرية التي أقامها البرتغاليون في المراكز التجارية، وبذلك تحول هذا المعبر المائي المزدهر إلى مخزن للتجارة فقط يسوده الخراب[١٤] .

وحقيقة الأمر لم يكن البرتغاليون سوى جامعي ضرائب، إذ عمدوا إلى فرض الرسوم الجمركية على نشاطات الشحن والتفريغ والتخزين في الموانئ العربية، بإشراف موظفين كبار يمثلون الأرستقراطية البرتغالية، ولم يكن يسمح لأي سفينة بمغادرة الموانئ التي خضعت لنفوذهم بدونها وإلا تعرضت للسلب والنهب من قبل البرتغاليين أنفسهم، وجرت العادة أن تقوم سلطات الأخيرين بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع بما لا يقل عن ١٠٪، ومن أجل ذلك تجبر السفن على المرور إما في هرمز أو في مسقط[١٥] .

من جانب آخر جدد البوكيرك أطماعه الاقتصادية في مناطق الخليج العربي بقيادته لحملة عسكرية استهدفت احتلال هرمز للمرة الثانية عام ٩٢١هـ/١٥١٥م[١٦]، بسبب تنامي أهميتها التجارية ومردوداتها المالية للسلطات البرتغالية، وفي هذه المرة أجبرت المدينة على دفع غرامة مالية حالت دون إحراقها[١٧] . ويتحدث الكابتن دي باروز (De Pirose) أحد القواد البرتغاليين عن دخل هرمز في تلك الفترة، بالقول : "إنه كان يبلغ نحو (١٩٨,٠٧٨) ألف أشرفي كان يتم جمعها من المناطق الخاضعة لهرمز في عمان والساحل وهي قليات ومسقط وصحار وقريات وخورفكان ودبا وليما وجلفار، كما كان يساهم في ذلك الدخل ما تربحه السفن من صيد اللؤلؤ"[١٨] .

بعد أن بسط نفوذه على هرمز وأضافها إلى أملاك البرتغال تراجع البوكيرك نحو الهند، وأوردت المصادر

التاريخية مقتله في إحدى غزواته البحرية في جوا عام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وخلفه في حكم الممتلكات البرتغالية بالهند لوبو سواريز (Lopo Suwires) الذي وصف بأنه انتهج سياسة مشابهة لسلفه من حيث الشدة والعنف، ولكنه كان أشره منه إلى استلاب ثروات البلدان واستغلالها أبشع استغلال[١٩]، إذ أعلن أنه قد عين موظفين برتغاليين لضبط سائر الشئون الجمركية في هرمز وما يتبعها من مناطق، وقد وقع هذا الخبر وقع الصاعقة على سائر العرب في تلك الربوع[٢٠].

تجددت الهجمات البرتغالية على الموانئ العربية وهنا أدرك البرتغاليون ضرورة السيطرة على البحرين، التي اشتهرت بمغاصات اللؤلؤ ومصايد الأسماك والجواهر، وبأهميتها التجارية المتأتية من موقعها الجغرافي على الطريق للسفن المنطلقة من البصرة والقوافل التي تأتي من بلاد فارس، وهي خصائص جعلت منها بمثابة خزان لبضائع الشام والجزيرة العربية وخصوصاً الخيول، فسارعت حملة برتغالية تولى قيادتها أنطونيو كوريا (Antonio Goria) تمكنت من احتلال البحرين في عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م، وحولتها إلى محطة تجارية للإمبراطورية البرتغالية ولعرقلة تجارة الخليج العربي ما بين الهند والدولة العثمانية[٢١]، وأعقب ذلك فرض الغزاة ضرائب باهظة على العاملين في الغوص على اللؤلؤ، وإجبارهم على بيع اللآلئ لحسابهم بأثمان بخسة ثم نقلها إلى الغرب، وبذلك يحصلون على أرباح وإيرادات ضخمة من هذه التجارة الرائجة[٢٢].

ولعل نظام الجوازات كان من أهم مصادر الدخل البرتغالية وواحداً من مظاهر سياستهم الاقتصادية في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، والذي بموجبه كان يتحتم على كل سفينة الحصول على جواز عن طريق دفع ضريبة معينة في أحد الموانئ أو المواقع البرتغالية، إذ يحدد في كل جواز الموانئ التي يحق للسفينة دخولها والسلع التي يسمح لها بحملها، وأية سفينة لا تحمل مثل ذلك الجواز أو تتخطى الحدود المرسومة لها فيه، مصيرها المصادرة أو التدمير[٢٣]، ومما يعزز ذلك ما أوردته المصادر الإنجليزية بالقول : "إن السلطات البرتغالية لم تكن تتردد في منح الجوازات لمن يرغب فيها لقاء شيء بسيط من المال"[٢٤].

يمكن القول على ضوء استقراء الأحداث السابقة أنه باستيلاء البرتغاليين على جزيرة هرمز وهيمنتهم على بعض موانئ الخليج العربي، فقد استطاعوا تحويل الجزء الأكبر من التجارة الرئيسية من طرق القوافل التقليدية إلى طريق رأس الرجاء الصالح[٢٥]، إلى جانب محاولاتهم فرض سياساتهم الاقتصادية بالخليج العربي، وفي نطاق احتكارهم للسلع والطرق التجارية أرادوا أن تكون لهم كلمة الحسم في شئون الصادرات والواردات، وأن يضعوا أيديهم في سائر الشئون الجمركية في هرمز والقطيف والبحرين[٢٦]، وهي ممارسات أدت إلى ردود فعل عربية واسعة النطاق، تمثلت في اندلاع سلسلة من الثورات المحلية في كل من هرمز وساحل عمان والبحرين استهدفت الوجود البرتغالي برمته .

ويبدو أن أهم الثورات العربية هي ثورة عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م التي تم فيها مهاجمة جميع الحصون البرتغالية ليلة ٣٠ تشرين الثاني عام ١٥٢١م ويورد لنا ويلسون في كتابه (تاريخ الخليج) أسبابها بالقول : "إنه بناءً على تعليمات صادرة من الملك الدون عمانويل ملك البرتغال، بتعيين بعض المسئولين البرتغاليين كمشرفين على الجمارك في هرمز محل الموظفين المحليين، غير أن هؤلاء وبسبب معاملتهم الصلفة تسببوا في قيام ثورة شاملة في هرمز، تعاون فيها اهالي الأخيرة والبحرين ومسقط وقريات في سبيل إنهاء الوجود الأجنبي على أراضيهم، وقد قتل خلال الاشتباكات والأحداث عدد كبير من البرتغاليين"[٢٧]، وأوشكت الثورة على النجاح لولا أن دب الخلاف بين أبناء الخليج العربي وخاصة بين شيوخ الجبر وملوك هرمز، واستغل البرتغاليون الفرصة فأرسلوا نجدات إلى هرمز التي تزعمت الثورة وتمكنوا من إسقاط الإدارة الوطنية فيها[٢٨]، وتبع ذلك نجاح الأسطول البرتغالي في محاصرة جزيرة البحرين ثم النزول فيها بعد قصفها بشدة، وقاتل سكان مدينة المنامة بالشوارع ضد القوات البرتغالية وأبدوا من ضروب الشجاعة ما لا يمكن وصفه[٢٩]، وأجبر الغزاة أهالي البحرين على دفع الإتاوة السنوية والتي يقدرها الرحالة البرتغالي تكسيرا (Teixeira) بأربعمائة دوكات[٣٠] سنويا[٣١]، وبذلك أعاد البرتغاليون فرض سيطرتهم على تدفق الحركة التجارية بالمنطقة وأصبحت هرمز بجانب مسقط والبحرين

قواعد الارتكاز الرئيسية في الخليج العربي .

وفي عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م اندلعت ثورة أخرى نتيجة لعزل شرف الدين ملك هرمز من قبل حاكم المستعمرات البرتغالية في الهند، فقد أثار عزله احتجاج البحرين حيث غضب حاكمها (بدر الدين) وهو ابن عم (شرف الدين) ورفض دفع الجزية السنوية التي كان يدفعها للبرتغاليين، فأرسلت البرتغال حملة عسكرية نجحت في القضاء على الثورة[٣٢]، ومع ذلك استمرت حالة الرفض العربي للوجود الأجنبي لدرجة أن ملك البرتغال أمر بترحيل كافة القوى والجماعات المناوئة للنفوذ البرتغالي في جزيرة هرمز، كما أنتجت هذه الثورات المتتالية انفصال البحرين التي جهد البرتغاليون في ضمها ولم يفلحوا[٣٣] .

أما البصرة فيلاحظ أنه ومنذ وصول البرتغاليين إلى الهند، ودخولهم الخليج العربي في أوائل القرن السادس عشر، فقد أخذت المدينة تتأخر شيئاً فشيئاً ولم تتمكن من بلوغ الرقي الذي كانت تصبو إليه، طالما أن سياسة البرتغاليين الرئيسية كانت تستهدف تحويل التجارة وصد المواصلات البحرية عن كل الموانئ الواقعة على سواحل الخليج العربي ومن بينها البصرة، ومنع الأخيرة من تبوز المكانة التجارية والسياسية التي تطمح إليها في المنطقة، ومما يعزز ذلك ما أوردته الوثائق البرتغالية من رسالة بعث بها حاكم هرمز كريستوفر دي مينوس (Christofer de Minos) مؤرخة في ١١/٧/١٥٢٨م إلى ملك البرتغال جوا الثالث، تتضمن الإشارة إلى محاولات والي البصرة راشد بن مغامس إنشاء أسطول خاص به وخطر ذلك على هرمز، رغم أن الأخير كان يدعي ولاءه للبرتغاليين والطلب بضرورة الحيلولة دون تقوية نفوذ الوالي المذكور وخروج البصرة من تبعية ملك هرمز، نظراً للأهمية الاقتصادية التي تتمتع بها بالنسبة لهرمز، إذ تزود البصرة الأخيرة بالمواد الغذائية وخصوصاً بالقمح، كما تتولى المدينة توزيع بضائع الشرق الأقصى على الجزيرة العربية والشام[٣٤] .

بدأ الاهتمام البرتغالي بالبصرة منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وقد جاءتها أول حملة برتغالية في عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م، عندما استعان راشد بن مغامس أمير البصرة بالبرتغاليين ضد خصمه أمير الحويزة، فبعث دي كونها (De Kunha) نائب الملك في الهند حملة عسكرية تولى قيادتها تافرز

دي سوزا (Tavers de Sousa) ولكن دب الخلاف بين القائد البرتغالي وأمير البصرة، مما جعل القائد البرتغالي يدمر بعض القرى التابعة للبصرة ثم عاد أدراجه إلى هرمز[٣٥]، فيما أرجع لونكريك (Longrigg) سبب الخلاف إلى رفض راشد بن مغامس مساومة البرتغاليين له وضربه بشروطهم حول التجارة عرض الحائط[٣٦].

ويرى الكتاب والباحثون أن البصرة لم تشهد طوال تاريخها عهداً انحسرت فيه تجارتها كالعهد الذي شهدته في معظم النصف الأول من القرن السادس عشر، ذلك أن الحروب المستمرة بين الصفويين المسيطرين على العراق حتى عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م والعثمانيين المستولين على بلاد الشام، منع تجار الأخيرة من الوصول إلى بغداد والبصرة لحمل المتاجر الشرقية، فامتنعت بالتالي السفن الشرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج العربي والبصرة، وتعقد الأمر بوقوع مناطق العراق الوسطى والجنوبية تحت السيطرة العثمانية، ودخول العثمانيين في صراع طويل مع البرتغاليين المهيمنين على مياه المحيط الهندي والخليج العربي، والذين لم يتخلوا أبداً عن سياستهم الاقتصادية الرامية إلى السيطرة على التجارة الشرقية، إمعاناً في القضاء على كل النشاطات التجارية الأخرى غير البرتغالية في الخليج العربي وموانئه[٣٧]. وقد ألحقت هذه السياسة البرتغالية كما يعرضها لنا ستربلنك (Stripling):

"ضرراً كبيراً باقتصاديات المنطقة بعد أن فقد المواطنون بسببها عائدات كبيرة كانت تنهال عليهم من جراء ممارستهم للفعاليات التجارية كتجار وبحارة وبناة سفن وسماسرة ومتعهدي شحن وتفريغ كل هؤلاء أخذوا يقاسون بشكل متفاوت من قلة الدخل، يضاف إلى ذلك ما كان يعانيه أصحاب الحوانيت في الأسواق من بائعي الأقمشة والمواد الغذائية وكذلك الوسطاء لأنهم كانوا بشكل أو بآخر مرتبطين بالتجارة الهندية - الأوروبية"[٣٨].

ومع ذلك وقف البصريون صامدين أمام الإجراءات البرتغالية لفترة غير قصيرة، وقاموا بعدة محاولات جادة لفك الحصار الاقتصادي المفروض عليهم، إذ تزعم راشد بن مغامس آل عليان حكومة محلية في ولاية البصرة لمواجهة التحالف البرتغالي - الصفوي الموجه ضد العثمانيين، وأضحت البصرة أكثر مناطق العراق تأثراً بنتائج ذلك التحالف

وخاصة الحصار الاقتصادي الذي وضع ضد العثمانيين بالعراق والخليج العربي، فما كان من راشد بن مغامس إلا أن اتجه نحو العثمانيين الذين تمكنوا من احتلال بغداد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م، ويبدو أنه أراد من إعلان ولائه للسلطان جر الدولة العثمانية باعتبارها أعظم قوة برية يومئذ إلى رأس الخليج العربي، لتقوم بدور في إقصاء النفوذ البرتغالي وكسر الطوق المفروض على تجارة المشرق العربي[٣٩].

من جانب آخر لم يطرأ أي تغيير على السياسة الاقتصادية البرتغالية القائمة على استغلال خيرات الشعوب وحرمانها من حق المتاجرة باتباع وسائل النهب والقرصنة، فقد أوردت المصادر الإنجليزية حدوث نزاع في عام ٩٤٨هـ/١٥٤٢م بين السلطات البرتغالية وشيخ هرمز شرف الدين، بسبب عجز الأخير أو إهماله دفع المتأخرات عليه من الضرائب، وهو ما دفع البرتغاليين إلى أن يتولوا بأنفسهم الإشراف المباشر على المراكز الجمركية، وبذلك حصلوا على كل ما كانوا يطالبون به[٤٠].

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين في الاستيلاء على البصرة عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م وطرد حاكمها من آل عليان (راشد بن مغامس) الذي خلع طاعته للأولين وطلب العون من البرتغاليين[٤١]، فقد بادر العثمانيون إلى فتح باب الحوار مع البرتغاليين في هرمز من أجل إنعاش التجارة في البصرة، إذ أرسل محمد باشا والي البصرة التاجر العربي الحاج فياض (Hajji Fayt) إلى الحاكم البرتغالي في هرمز مانوئيل دي ليما (Manuel de Lema)، مبدياً رغبة السلطات العثمانية بأن تبقى التجارة مفتوحة وضرورة إقامة علاقات تجارية ودية مع البرتغاليين، ومع أن الأخيرين أوفدوا شخصاً إلى البصرة لمدة ثلاثة أشهر لتمثيل مصالحهم التجارية، إلا أن المحاولة ككل لم تكن ناجحة بسبب اعتقاد البرتغاليين بأن السياسة العثمانية تهدف إلى جعل البصرة مركزاً تجارياً يتهدد مصالحهم وأهدافهم الاقتصادية في الخليج العربي، لذلك ظلوا متيقظين ويتوجسون شراً من التحركات العثمانية[٤٢].

على ضوء ما تقدم يمكن القول أنه ما إن انتصف القرن السادس عشر حتى كانت البرتغال قد وضعت يدها تماماً على معظم جمارك الخليج العربي بالإضافة إلى تملكها لجزيرة هرمز، كما اتضحت سياسة البرتغاليين الاقتصادية

التي كانت ترمي إلى جعل الخليج العربي مجرد سوق محلية للتجارة البرتغالية سواء كانت تجارة البرتغال نفسها أو تجارة إمبراطوريتها في جنوب آسيا، وهو الأمر الذي حول قباطنتهم البحريين وكبار مسئوليهم من حكام إلى تجار، معتمدين على القوة دون سواها لتحقيق أغراضهم القومية والفردية، وهي سياسات أنهكت قواهم كونها جوبهت بمعارضة متزايدة من السكان المحليين، حتى وجد البرتغاليين أنفسهم في منتصف القرن المذكور يواجهون تهديداً مؤثراً من العثمانيين[٤٣] .

تطور السياسة الإقتصادية منذ منتصف القرن (١٦) وحتى عام ١٦٢٢

أدركت السلطات البرتغالية أن سياسة الحصار الاقتصادي التي اتبعتها ضد الموانئ والمدن الواقعة على سواحل الخليج العربي لم تعط النتائج المرجوة منها، ومما يعزز ذلك ما أوردته المصادر البرتغالية ذاتها لعام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م مشيرة إلى : "رسالة موجهة من قاضي هرمز إلى الملك البرتغالي في العام المذكور، يخبره فيها أن نائب الملك بالهند منع على جميع التجار ومهما كانت جنسيتهم أن يلتحقوا بالبصرة، وهدد من فعل ذلك بعقاب شديد . . . وهو الشيء الذي جدد العمل به القبطان الحالي الذي أعلن الحصار ضد البصرة ومقاطعتها تجارياً ولكن هذه المقاطعة لم تعط نتائجها لاستمرار التجار في الإقبال على البصرة من البحرين"[٤٤]، وعلى ذلك أجرى القادة البرتغاليون تعديلاً مهما على سياستهم الاقتصادية تجاه سكان المنطقة، بعد أن عاينوا معطيات التجارة وصاروا يدركون أن إغلاق الخليج العربي في وجه التجارة العربية سوف لن يؤدي في نهاية الأمر إلا إلى تنشيط الطرق البرية التي لا يمكن للبرتغاليين مراقبتها، كما أن الهند لا يمكنها الاستغناء عن مواد تعودت الحصول عليها من الوطن العربي كالخيول والفضة، لهذا لم يعد المسئولون

البرتغاليون ينظرون إلى التحكم في هرمز نظرتهم إلى احتلال عدن أو جزر القمر مثلاً[٤٥] .

من جانب آخر واجه النفوذ البرتغالي ومنذ بداية خمسينيات القرن السادس عشر تحديات جديدة تمثلت في المحاولات التي قامت بها الدولة العثمانية لمد سيطرتها إلى الخليج العربي، إذ أدى تنازل عرب القطيف عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م عن حصنهم للعثمانيين إلى دفع البرتغاليين إلى اغتنام فرصة محاولات التقرب التي صدرت من قبل زعماء عرب البصرة، الذين ناشدوا الأخيرين بالتدخل، لذلك عين ألفونسو دي نورونها (Alfunso de Noronha) الحاكم البرتغالي في الهند أنطونيو دي نورونها (Antoio de Noronha) قائداً لقوة تتألف من (١٢٠٠) رجل وسبع سفن كبيرة، انضمت إليها قوة بحرية قادها شرف الدين أمير هرمز تمكنت من احتلال القطيف بعد حصار دام ثمانية أيام، ثم عزم القائد البرتغالي على الزحف نحو البصرة لكنه لم يحقق إلا شيئاً قليلاً لأن والي البصرة علي باشا طبق خطة ذكية لتفادي هذا الهجوم بحيث جعل القائد البرتغالي يعتقد بأن العثمانيين والعرب قد شكلوا في البصرة حلفاً ضد البرتغاليين، الأمر الذي جعل دي نورونها يقرر الانسحاب إلى هرمز وهناك فقط علم أنه قد خدع[٤٦] .

عاود البرتغاليون في السنوات اللاحقة شن هجمات على البصرة، حيث شهد عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م قيامهم بغارة مفاجئة على المدينة وتمكنوا من إلحاق بعض الأضرار بالميناء إلا أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليه، إذ هبت على الأسطول عاصفة عاتية شلت حركته بعد وصوله إلى البصرة، فعاد إلى قواعده دون أن يحقق شيئاً، أما منطقة الفاو فقد استخدمها البرتغاليون كقاعدة وميناء لهم لفترة زمنية معينة، تحقيقاً لمردودات اقتصادية تعود عليهم بالنفع[٤٧] .

وتمثل رد الفعل العثماني في إرسال استنبول عدة حملات بحرية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى مدن وموانئ الخليج العربي، استطاعت إلى حد كبير إضعاف الاحتكار التجاري البرتغالي، إلا أنها لم تستطع القيام بعمل حاسم في طرد البرتغاليين من المنطقة، وهذا ما كانت تسمح به إمكانيات العثمانيين المادية وقتذاك، إلا أنه يبدو أن قبضة البرتغاليين بدأت تتراخى في ظل تزايد النشاط العثماني من جهة وتصدع الجبهة

البرتغالية - الفارسية من جهة أخرى، الأمر الذي أتاح للبصرة اختراق الحصار البرتغالي الذي لم يعد طوقه محكماً[٤٨].

ومع أن العثمانيين دخلوا في صراع عنيف مع البرتغاليين في المنطقة إلا أنهم حاولوا إعادة العلاقات التجارية مع الأخيرين في هرمز[٤٩]، وقد قوبلت هذه المبادرة بالارتياح من جانب السلطات البرتغالية التي كانت تطمح في فتح باب الحوار وإقامة علاقات تجارية مع البصرة، وفي هذا الصدد يشير المؤرخ التركي أوزبران إلى أن علي باشا والي البصرة بعث في عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م برسول من قبله إلى هرمز للتفاوض مع البرتغاليين من أجل إعادة العلاقات التجارية بينهما عبر الخليج العربي، وعلى هذا الأساس أرسل نائب الملك في الهند شخصاً يدعى أنطونيو تكسيرا (Antonio Teixeira) إلى السلطان، الذي بعث بدوره رسالة إلى ملك البرتغال تطلب منه تأمين الطرق البرية والبحرية وضرورة حمايته للأهالي والتجار التابعين للإمبراطورية العثمانية، والذين يتاجرون من وإلى البلدان الخاضعة للنفوذ البرتغالي، فإذا ما استجاب الملك لهذا المطلب فإنه ستنشأ علاقات صداقة بين الجانبين[٥٠]، وهو أمر نظر إليه البرتغاليون على أنه يعد تطوراً إيجابياً في علاقتهم التجارية مع البصرة، غير أن السلطان اتخذ موقفاً غير متوقع بإصراره على أنه إذا كان البرتغاليون جادين حقاً في استمرار تجارة البصرة - هرمز، فعليهم إرسال مندوب على مستوىً رفيع إلى البلاط العثماني لإعلان رغبة بلاده علناً[٥١].

ورغم الاعتراف بعدم حصول تقارب ملحوظ في مواقف كل من الجانبين البرتغالي والعثماني، إلا أن سنوات الربع الأخير من القرن السادس عشر قد شهدت تنامي العلاقات التجارية بينهما، واستناداً إلى الوثائق البرتغالية فإن مما ساعد على تطورها هو إقدام السلطات البرتغالية على انتهاج سياسة اقتصادية جديدة قوامها الاستمرار في فرض الرسوم الجمركية على السلع المصدرة، مع السماح للعرب بالتجارة في الخليج العربي وعدم تعرض سفنهم لهجمات الأسطول البرتغالي، شريطة حصولهم على تراخيص من السلطات البرتغالية تسمح لهم بالاتجار مع هرمز، وهو ما أدى إلى انتعاش تجارة الأخيرة بشكل ملحوظ حيث أخذت تتردد عليها السفن المحملة بمختلف البضائع من وإلى الخليج العربي، كما أصبحت

تؤدي وظيفة تجارية أساسية تقوم على امتصاص بضائع الجزيرة العربية والعراق والشام وتوزيع مواد الشرق الأقصى اعتماداً على البصرة على وجه الخصوص[٥٢] .

كان من نتائج تلك السياسة الاقتصادية البرتغالية الجديدة أن أخذت مدن وموانئ الخليج العربي تستعيد بعض نشاطها التجاري، وفي مقدمتها البصرة التي أصبحت المصدر الرئيسي للبضائع الهندية المارة بالعراق، كما عاد التجار الأوروبيون يتعاملون مع مراكز التجارة في سواحل الشام ومصر[٥٣]، ولعل ما أورده الرحالة الأوروبيون الذين زاروا المنطقة خلال تلك الفترة من إشارات مهمة تعزز ما ذهبنا إليه، إذ أشار الرحالة الهولندي راوولف الذي زار بغداد عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤م إلى ذلك بقوله : "وكان العثمانيون يصدرون الخيول الجميلة فيرسلون عدداً وفيراً منها إلى الهند عن طريق فارس، ولكن معظمها يرسل بطريق هرمز حيث يتلقى ملك البرتغال كل سنة مبلغاً طيباً من المال بصفة رسوم تبلغ أربعين دوقة، لكل رأس من الخيل"[٥٤] . أما الرحالة نيوبري (Newbery) الذي مر بمدينة البصرة عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م فقد أكد على ازدهار تجارتها، إذ ذكر : "إن في البصرة مخازن كبيرة للقمح والأرز والتمور وهي تمون بغداد وكل الأقطار الأخرى مثل هرمز وكل أجزاء الهند"[٥٥]، إلى جانب ذلك فقد أورد الرحالة إلدريد (Eldred) الذي زار الخليج العربي في نهاية القرن السادس عشر : "بأن السفن المحملة باللؤلؤ كانت تشق طريقها من هرمز إلى البصرة، كما تصلها البضائع الهندية المختلفة كالتوابل والبهارات والأقمشة"[٥٦] .

شهدت بدايات القرن السابع عشر حدوث تطورات مهمة في غير صالح البرتغاليين في الشرق عموماً والخليج العربي بخاصة، نتجت عن وصول سفن أوروبية أخرى جاءت لتشارك في منافع التجارة الشرقية، فقد ظهر الهولنديون في المياه الشرقية كما كان الإنجليز يتطلعون إلى نفس الاتجاه، الأمر الذي ترك نتائجه السلبية على الوجود البرتغالي برمته، خاصة بعد تقلص قوة البرتغاليين منذ الهزائم الكبيرة التي لحقت بهم في منطقة سوالي على أيدي الإنجليز في عام ١٠١٩هـ/١٦١٠م[٥٧]، ومع ذلك فقد قام البرتغاليون بعدة محاولات لاستعادة كامل نفوذهم في الخليج العربي، وأوردت المصادر

وتمثلت تلك البذور في ممارسات البرتغاليين العسكرية والسياسية من ناحية وفي أساليبهم التجارية من ناحية أخرى، والتي عدت بمثابة الإسفين الذي نخر في إمبراطوريتهم الاستعمارية، حتى أنهم عجزوا عن الفصل بين مصالحهم التجارية والسياسية من جهة وحماسهم الديني من جهة أخرى.

ثالثاً : رغم كل أساليب القتل والتدمير التي انتهجها البرتغاليون في غزوهم للخليج العربي، وقسوة إجراءاتهم وسياستهم الاقتصادية - الآنفة الذكر - الموجهة ضد السكان المحليين، فإن التجارة العربية في الخليج والجزيرة العربية والمشرق لم تتأثر بنشاطات البرتغاليين إلا جزئياً، كما أنها لم تتوقف رغم المضايقات والحصارات التي مارسها الأسطول البرتغالي ضد السفن والموانئ الخليجية، فيما لم يتمكن البرتغاليين من قطع الطرق التجارية التي تربط الهند وإندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي، في حين بقيت التجارة البرتغالية حتى النهاية تمثل كما يصفها أحد الباحثين، تجارة الباعة المتجولين (The Peddiers) ليس إلا .

د. صبري فالح الحمدي
كلية التربية - قسم التاريخ
الجامعة المستنصرية - بغداد

الهوامش

١ - Douglas, Carruthers ; The Desert Route to India, London,1929, P. XIII.

٢ - Holden, Furber ; Rival Empires of Trade in the Orient 1600 - 1800, Oxford University Press, 1976, P.3.

٣ - أنظر : - Alboquerque, Alfonso ; The Commentries of (Trans) into English by W De Gray Bray Birch Hakisoc, Vol. I, London, 1973, P.115.

٤ - لمزيد من التفاصيل أنظر ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة أحمد خالي، القاهرة (د.ت.) ص ٥٢ .

٥ - سونيا، ي، هاو، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، راجعه الدكتور محمود النحاسي، القاهرة ١٩٥٧، ص ص ٢١٤ - ٢١٥ .

٦ - عائشة السيار، دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا ١٦٢٤ - ١٧٤١م، بيروت، ١٩٧٥، ص ٢٩ .

٧ - أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل، مجلة المناهل، العدد السادس والعشرون، السنة العاشرة، الرباط، جمادى الأولى ١٤٠٣هـ/مارس (آذار) ١٩٨٣م، ص ٥١ .

٨ - الأشرفي يساوي ديناراً عثمانياً .

٩ - نوال حمزة الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ص ١٢٥ - ١٢٦ .

١٠ - The Travels of Pedro Teixeira, With his "Kings of Harmuz" and extracts from his "Kings of Persia" Hakisoc. 1902, P. 20.

١١ - لمزيد من التفاصيل أنظر زين الدين، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، لشبونة ١٨٩٨، ص ٦٧ .

١٢ - أرنولد ت. ويلسون، الخليج العربي، نقله إلى العربية وقدم له الدكتور عبد القادر يوسف، الكويت (د.ت.) ص ٢٠٩ و ٢١٦ .

١٣ – أنظر س.ب. مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ص ١٥٤ – ١٥٥ ؛ د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢٥) الرياض، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ص ٢٧ – ٢٨ .

١٤ – الصيرفي، المصدر السابق، ص ١٨٨ و ١٩٦ .

١٥ – د. خلدون النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٦٥ .

١٦ – R.B. Serjeant, The Portuguese Off the South Arabian Coast, Oxford, at the Clarendon Press, 1963, P. 11.

١٧ – أنظر قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكاتب العربي، بيروت،١٩٦٥، ص ٣٦٥ .

١٨ – سليمان محمد الغانم، الوجود البرتغالي في عمان في المصادر المحلية العمانية في كتاب "مصادر تاريخ الجزيرة العربية" الكتاب الأول، الجزء الثاني، مطبعة جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ١١٧، مايلز، المصدر السابق، ص ١٦٣ .

١٩ – قلعجي، المصدر السابق، ص ٣٦٦ .

٢٠ – أنظر أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، العدد الرابع، السنة الثانية، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ/يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤م، ص ٩٦ .

٢١ – R.H. Sanger ; Arabian Peninsula, Cornell University Press, Ithaca, New York, 1954, P. 147 : بوشرب، المصدر السابق، ص ١٢٣ .

٢٢ – أنظر د. محمد عارف الكيالي، الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، جمادى الثانية ١٤٠٩هـ/يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩م ص ١١٦ .

٢٣ – د. عبد الأمير محمد أمين، نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، مجلة دراسات، المجلد الخامس عشر، العدد السابع، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٨٨، ص ٨٢ .

٢٤ – W.H. Moreland ; From Akbar to Aurangzeb, London, 1923, P. 8 .

٢٥ – أمين، المراحل الأولى للتنافس بين طرق القوافل القديمة وطريق رأس الرجاء الصالح الجديد، في "كتاب تكريم الأستاذ عبد الكريم غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين"، عمان، ١٩٨٨، ص ٢٧٨ .

٢٦ – أنظر العناني، البرتغاليون في البحرين، ص ٩٦ .

٢٧ – المؤلف نفسه، الأوروبيون في الخليج . البرتغاليون (٣) مجلة الدوحة . ذو القعدة ١٣٩٦هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٦م، ص ٨٨ . ويلسون، المصدر السابق، ص ٨٠ .

٢٨ – لمزيد من التفاصيل أنظر د. محمود علي الداود، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ – ١٦٥٠، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثاني، شباط، ١٩٦٠ ص ٢٣٦ ؛ ويلسون، المصدر السابق، ص ٢١٨ .

٢٩ – عباس أحمد العصفور، صراع الخليج العربي ضد المطامع الأجنبية في العصر الحديث، بحوث المؤتمر الدولي الأول للتاريخ، بغداد، ١٩٧٣، ص ١٢٥ ؛ د. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٩ .

٣٠ – الدوكات : جمع دوكة (دوقة) وهي عملة فينيسية قديمة تعادل الواحدة منها ستة شلنات إنجليزية أو ما يعادلها .

٣١ – Fereydaum Admiyat ; Bahrain Islands, Alegal Diplomatic study of the British Iranian Controversy, New Yourk, 1935, PP 21 - 22 .

٣٢ – أنظر د. خالد يحيى العزي، الواقع التاريخي والحضارى لسلطنة عمان، بغداد، ١٩٨٥، ص ٦٦ .

٣٣ – الداود، المصدر السابق، ص ١٣٢ .

٣٤ – Serjeant ; Op. Cit, P. 12 ؛ بوشرب، المصدر السابق، ص ٥٤ .

٣٥ – أنظر الصيرفي، المصدر السابق، ص ١٣٢ .

٣٦ – أنظر ستيفن همسلي، لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٦٨، ص ٥٨ .

٣٧ – د. طارق نافع الحمداني، تجارة البصرة الخارجية ودورها في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الرابع والثلاثون، السنة التاسعة، جامعة الكويت، أبريل (نيسان) ١٩٨٣م/جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ، ص ٦٦ .

٣٨ – G.W.F. Stripling ; The Ottoman Turks and the Arabs 1511 - 1574. (Urbans. 1942) P. 80 .

٣٩ – أنظر عماد أحمد الجواهري، الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي ١٥٠٠ – ١٦٠٠، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الثالث عشر، السنة الرابعة، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨م/محرم ١٣٩٨هـ – ص ص ٨٥ ٨٦ .

٤٠ – ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، ترجمة ديوان أمير قطر، الدوحة، ١٩٧٦، ص ١٦ .

٤١ – أنظر عباس العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية منذ صدر الإسلام إلى آخر العهد العثماني (١٢هـ –٦٣٣م/١٣٣٥هـ – ١٩١٧م)، بغداد، ١٩٥٨، ص ٦٤ .

٤٢ – د. صالح أوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ – ١٥٨١، ترجمة وتعليق د. عبد الجبار ناجي، بغداد، ١٩٧٩، ص ٣٢ و ٣٨ ؛ الحمداني، تجارة البصرة الخارجية، ص ٦٧ .

٤٣ – العناني، البرتغاليون في البحرين، ص ١٠٠ .

٤٤ – بوشرب، المصدر السابق، ص ٥٤ .

٤٥ – المصدر نفسه، ص ٧٧ .

٤٦ – أوزبران، المصدر السابق، ص ص ٤٠ – ٤٢ .

٤٧ – د. عبد الوهاب القيسي، موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية، مجلة الخليج العربي، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٠، ص ٥٠ ؛ لوريمر، المصدر السابق، ص ١٨ .

٤٨ – مايلز، المصدر السابق، ص ١٧٢ ؛ الجواهري، المصدر السابق، ص ص ٨٩ – ٩٠ .

٤٩ – الحمداني، تجارة البصرة الداخلية والعوامل المؤثرة فيها خلال القرن السادس عشر، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة العاشرة، الرياض، شوال ١٤٠٤هـ/يونيو (حزيران) ١٩٨٤م، ص ص ١٦٠ – ١٦١ .

٥٠ – لمزيد من التفاصيل أنظر أوزبران، المصدر السابق، ص ص ٥٥ – ٥٦ .

٥١ – M. de Farlay Sousa ; The Portuguese in Asia (Trans) . From English by T. Stevens, Vol. I, London, 1695, P. 332 ; العناني، البرتغاليون في البحرين، ص ١٠٧ .

٥٢ – Sergeant, Op. Cit, P. 23 ؛ بوشرب، المصدر السابق، ص ص ٧٨ – ٧٩ .

٥٣ – الصيرفي، المصدر السابق ص ١٦٩ .

٥٤ – لمزيد من التفاصيل أنظر ليونهارت راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، بغداد ١٩٧٨، ص ١٧١ .

٥٥ – C.R. Beazley (ED) ; Voyages and Travels Mainly During the 16th 17th Centuries, Vol. I, West Minister, 1903, P. 311.

٥٦ – The Voyages of M. John Eldred ; An English caruer voyages and travels mainly during the 16th and 17th centuries, Vol. I, P. 300.

٥٧ – C.R. Boxer ; Portuguese Conquest and Commerce in Southern Asia, 1500 - 1750, London, 1985, PP. 55 - 56 ; ويلسون، المصدر السابق ص ٢٢٣ .

٥٨ – لوريمر، المصدر السابق، ص ٢٩ .

٥٩ – أمين، نظرة جديدة، ص ٢٩١ .

٦٠ – Alexander, Hamilton ; A New Account of the East Endies, Vol. I London, 1930, P. 84.

٦١ – لمزيد من التفاصيل أنظر نوار عبد الوهاب قاسم القيسي، الخليج العربي الأهمية الاستراتيجية وملامح السياسة البرتغالية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع عشر، السنة السابعة، جمادى الثانية ١٤٠٩هـ/يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩م، ص ١٦٥ ؛ الحلو، المصدر السابق ص ٥٨ ؛ العقاد، المصدر السابق، ص ٢٦ .

٦٢ – مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي، ١٦٢٢ – ١٧٦٣م، بيروت ١٩٨١، ص ٤٦ .

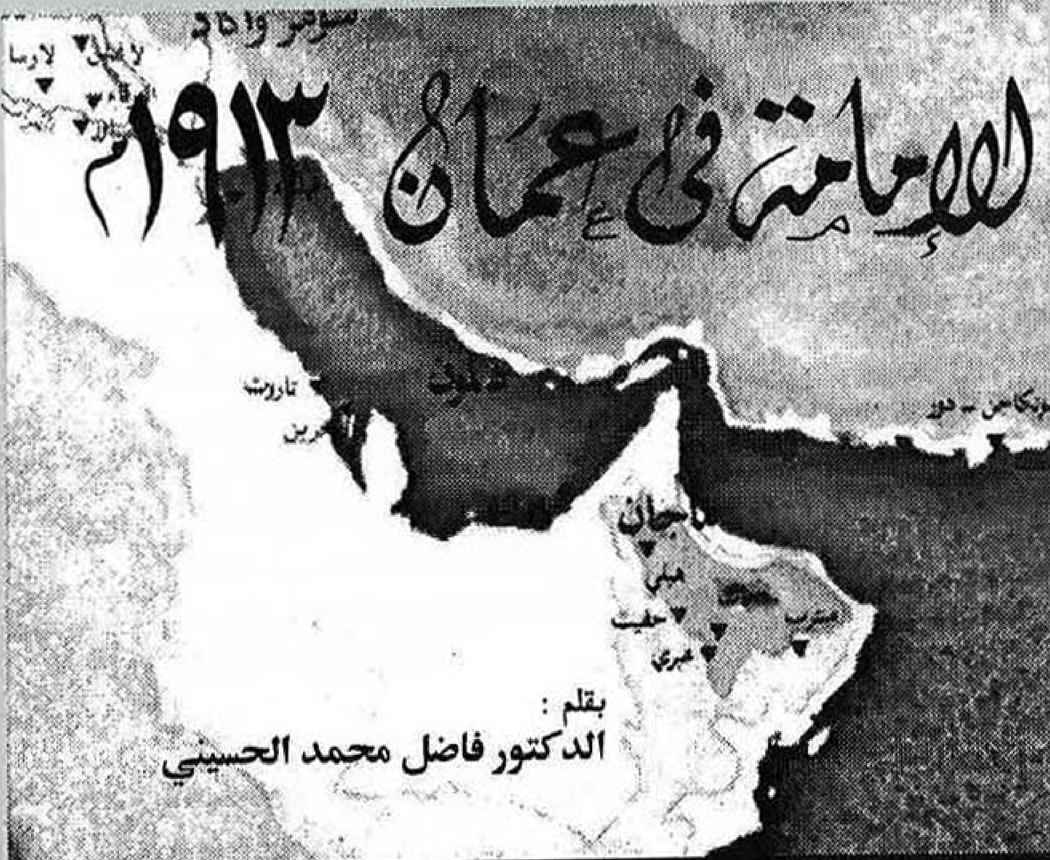
٦٣ – F.C. Danvers ; The Portuguese in India, Vol. II, London, 1966, P. 223.

٦٤ – العناني، البرتغاليون في البحرين، ص ١٠٦ ؛ الصيرفي، المصدر السابق، ص ١٨٨ .

موقف بريطانيا من الثورة



الإمامة في عمان ١٩١٣م



بقلم :
الدكتور فاضل محمد الحسيني

لم يتناول الباحثون الغربيون هذا الموضوع بتجرد وموضوعية. وللأسف فقد انساق بعض الباحثين العرب - لذات النهج - وبما أن اختصاصي الدقيق هو تاريخ عُمان الحديث والمعاصر. لذا حاولت جاهداً أن أقترب من الحقائق التاريخية التي أحدثتها حركة الإمامة في عُمان عام ١٩١٣م والتي ساهمت في صياغتها عناصر ثلاث بريطانيا وسلطان عُمان في الساحل والإمام في الداخل. هذا من جانب. ومن جانب آخر لم أجد كلمة غير (الثورة) معبرة عن هذا الحدث رغم ما تثيره هذه الكلمة من حفيظة هذه الجهة أو تلك. إنها ثورة لكونها اتصفت بالشمولية والعمق فقد اشتركت فيها غالبية شرائح المجتمع العُماني. كما كان لها بعد استراتيجي وأهدافها لم تكن دينية صرفة كما سنرى ذلك في فقرات البحث.

والواقع، إني لا أعني بكلمة الثورة وفق المفاهيم الحديثة والتي غالباً ما تطفو معها على السطح مفردات الطائفية والإقليمية والعنصرية، وإنما أردت من كل ذلك أن أوضح المسلك البريطاني تجاه منطقتنا العربية ومنها عُمان كنموذج وهو أن بريطانيا لم تتبنَّ يوماً نظاماً سياسياً معيناً أو تقف بوجه أيديولوجية محددة وإنما كان همها الوحيد الحفاظ على مصالحها الحيوية في المنطقة ليس إلا، وقد عبر مرة وزير خارجيتها (بالمرستون) صراحة عن هذه الرؤية السياسية الإنجليزية العامة في العالم حيث قال : "ليس لبريطانيا صداقة دائمة أو عداوة دائمة وإنما هناك مصالح دائمة".

سنعتمد في بحث أبعاد هذا الموضوع على الوثائق الإنجليزية والمصادر والمراجع العربية والأجنبية فضلاً عن المصادر المحلية العُمانية وفق الفقرات التالية :

أولاً: تاريخ الإمامة في عمان

ألف العُمانيون الإمامة كنظام للحكم منذ القرن الثامن للميلاد[1]، والإمامة تستند في أحكامها على المذهب الإباضي الذي يعد واحداً من الفرق الإسلامية[2]، وقد بدأ العُمانيون انتخاب أئمتهم وفق هذا المذهب منذ النصف الأول من القرن الثامن للميلاد على مدى أربعة قرون دون انقطاع فكان (الجلندي بن مسعود) هو أول إمام انتخبه العُمانيون للحكم في البلاد[3]، وبعدها سيطر النبهانيون على الحكم فألغوا الإمامة ولقبوا أنفسهم بالملوك الأمر الذي أدى إلى خلو مقعد الإمامة لفترة قرنين ونصف قرن تقريباً ثم حدثت الثورات الإباضية التي أعادت حكم الإمامة للبلاد في النصف الأول من القرن الخامس عشر للميلاد، ومن الجدير بالذكر أن أولى الثورات الإباضية كانت ثورة (عبد الله بن إباض) والذي منه جاءت تسمية المذهب الإباضي[4]، وكانت ثورته ضد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ثم أعقبتها ثورات

إباضية عديدة خلال العصرين الأموي والعباسي، ولعل أشدها ما قام بها سليمان وسعيد الجلنديين أيام الوالي الأموي الحجاج بن يوسف الثقفي إلا أن ثورتهما باءت بالفشل مما اضطرهما للفرار إلى أفريقيا الأمر الذي أدى لانتقال المذهب الإباضي إلى شرق وشمال أفريقيا وتأسيس الدويلات الإباضية ومنها دولة تاهرت لمؤسسها عبد الرحمن بن رستم عام ١٦٠هـ[٥].

لقد استمر نظام حكم الإمامة قائماً منذ ذلك الوقت حتى عام ١٥٦١م ثم انقطع لأكثر من ستين عاماً حيث يجوز وفق نظام الإمامة أن لا ينتخب إمام للبلاد عندما لا يتوافر الشخص المؤهل لها أو عندما تمر البلاد بظروف استثنائية كالاحتلال الأجنبي أو الانفراد بالحكم من قِبَل الملوك وذلك ما يسمى بفترة الشغور[٦].

ثم عادت الإمامة الإباضية في أسرة اليعاربة التي حكمت عُمان في الفترة من ١٦٢٤م إلى ١٧٣٨م وكان ناصر بن مرشد اليعربي هو أول إمام لعُمان من هذه الأسرة[٧]، وقد واجهت أسرة اليعاربة في أواخر أيامها صراعاً أسرياً خطيراً حول منصب الإمامة حتى إن أحد المتنازعين من أبناء الأسرة الحاكمة استعان بالفرس ضد منافسه في الحكم فاستغل نادر شاه (حاكم الفرس يومذاك) الفرصة، إذ وجد فيها الذريعة لبسط سيطرته على عُمان[٨]، وبالفعل احتل الفرس عُمان للفترة (١٧٣٩ - ١٧٤٤م) ثم تصدى لهم والي اليعاربة على ميناء صحار (أحمد بن سعيد) وكان لنجاحه في تخليص عُمان من الاحتلال الفارسي الأثر الكبير في انتخابه إماماً على عُمان عام ١٧٤٩م[٩] وبذلك، انتقلت الإمامة الإباضية من أسرة اليعاربة إلى أسرة البوسعيد، ولما توفى الإمام أحمد بن سعيد عام ١٧٨٣م، وقع اختيار العُمانيين على ابنه سعيد[١٠]، وقد تميز عهد الإمام سعيد بن أحمد الذي استمر حتى عام ١٨٢٠م بثنائية الحكم أي الحكم الديني الذي كان يمثله الإمام في داخلية عُمان وحكم آخر زمني في الساحل العُماني يمثله ابنه أحمد[١١]، ومن الجدير بالذكر، أن هذا الأمر يحدث لأول مرة في تاريخ عُمان الحديث وأن الأسباب التي أدت إلى ظهور ثنائية الحكم في عُمان عديدة إلا أن أبرزها يعود للظروف التي دعت إلى ظهور الحكم الزمني على الساحل إذ أن ظهور النفوذ للدول الأوروبية كبريطانيا وفرنسا وهولندا في منطقة الخليج العربي بعد

انهيار البرتغاليين واختلافهم في الأساليب الاستعمارية كتركيزهم على تأسيس المستعمرات واستغلال الأهالي وتكوين الإمبراطوريات فضلاً عن ابتداعهم الطرق الجديدة في التعامل التجاري حيث أعطوا الفرصة للعناصر القديمة في العمل من جديد علاوة على حرص هذه الدول الأوروبية الجديدة وخاصة بريطانيا على تأمين طرق المواصلات لإمبراطورياتهم الاستعمارية الأمر الذي ترتب عليه الدخول في علاقات مع القوى المحلية المسيطرة على هذه الطرق الحيوية، لذلك، وبدافع من التنافس فيما بينهم وهو الطابع الذي ميز هذه القوى الأوروبية خلال تواجدها في المنطقة، أخذت كل منها تحاول الحصول على اعتماد من أهالي المنطقة بهدف توطيد نفوذها وتوكيد وجودها، ولما كانت الإمامة الإباضية لا ترحب بقيام مثل هذه العلاقات وتعتبر الاتصال بالأجانب وما يجري من محرمات خرقاً للمبادئ الإباضية علاوة على انزوائها في المناطق الداخلية لعُمان الأمر الذي مهد السبيل للحكام المعنيين في الساحل بمهمة الاتصال الخارجي وإقامة العلاقات مع الأجانب مما جعلهم أكثر تحرراً ورغبةً في الاحتكاك بالخارج حيث دخل حكام الساحل في علاقات مع كل من الفرنسيين والهولنديين والإنجليز[١٢]، وهناك سبب آخر ساهم في نشوء الحكم الزمني في الساحل وهو ضعف شخصية الإمام سعيد بن أحمد، فانتخابه للإمامة لم يكن لكفاءته بقدر ما كان اعترافاً بمواقف أبيه الجليلة علاوة على عدم حصوله على اعتراف غالبية العُمانيين بإمامته[١٣] الأمر الذي أتاح للحركات الانفصالية المجال للسيطرة المحلية حيث لم يبق له سوى الاحتفاظ بلقب الإمامة الذي اختفى هو الآخر عندما وافته المنية عام ١٨٢٠م مما أعطى الفرصة لحكام الساحل أن يبرزوا ويطغوا.

ومن المفيد الإشارة إلى أن الحاكم العُماني في الساحل قد تلقب لأول مرة بلقب "السلطان" خلال هذه الفترة وقد ورد ذلك في المعاهدة المعقودة بين عُمان وبريطانيا عام ١٨٣٩ وكان لقب السلطان قد جاء بناءً على اقتراح من قِبل بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يومذاك[١٤].

وعلى ضوء ذلك، بدأت السلطنة تشق طريقها بالظهور فاتخذت من ميناء مسقط عاصمة لها، بيد أن الإمامة ظلت قابعة في الداخل وعاصمتها مدينة

الرستاق، كما أن حكام الساحل أخذوا يضطلعون بمهام الحكم تدريجاً ويوطدون علاقاتهم مع فرنسا من خلال اتصال نابليون بونابرت - أثناء وجوده بمصر - بالسلطان في مسقط[١٥]، فضلاً عن تمتين العلاقة مع بريطانيا، بينما نجد في المقابل انحسار سلطة الإمامة واقتصار سيطرتها على المقاطعات الداخلية ولاسيما بعد وفاة الإمام سعيد وعدم مواتاة الفرصة لانتخاب إمام جديد الأمر الذي أعطى الفرصة لسلطان مسقط وهو سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦م) أن يقوم بتوحيد عُمان تحت سلطته ويجعل من مسقط العاصمة الوحيدة للبلاد، وقد أدى عمله هذا إلى خلق فجوة واسعة بينه وبين رجال الإمامة في الداخل، ومما زاد في شقة الخلاف بين السلطان والإمامة هو تقرب السلطان سعيد الزائد للأجانب حيث أبرم عدة اتفاقيات معهم من أبرزها اتفاقية مع بريطانيا بصدد إلغاء تجارة الرقيق .

وهناك عامل آخر ساهم في اتساع الهوة بين السلطان والإمامة هو عدم استعداد رجال الدين الإباضيين للاعتراف بأسلوب الحكم القائم في الساحل العُماني وتشبثهم بنظام الإمامة في الحكم، وعلى ضوء ذلك، فهم لم يعترفوا بشرعية الحكم للسلطان مقابل ذلك لم يعبأ السلطان باعترافهم بعد أن فقد الحاجة إليه حيث استند في حكمه إلى نواح أخرى تدعم نفوذه وسلطته كالقوة العسكرية والاعتماد على الدول الأجنبية والحصول على معونتها، كما استغنى السلطان عن موارد البلاد الداخلية بعد أن تضاءلت وتوجه نحو استثمار الساحل من خلال فرض المكوس الجمركية، وقد تمكن السلطان سعيد إبان عهده من أن يمد نفوذه على الساحل الشرقي للخليج العربي إذ أصبحت موانئ بندر عباس وجزيرة هرمز وقشم تحت إدارته[١٦] .

ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى التباعد بين حكام الساحل ورجال الإمامة الإباضية هو ما يتعلق بصلب المبادئ الإباضية إذ عمل حكام الساحل بعد زوال التعصب في العقيدة لديهم نتيجة للاحتكاك الخارجي، على إحداث تطور في العقيدة الإباضية، وذلك بإهمالهم مبدأ الانتخاب الذي تستند عليه الإمامة في الحكم وأحدثوا بدلا عنه صيغة الحكم الوراثي الأمر الذي أثار استياء رجال الإمامة الإباضية .

والشيخ سالم بن راشد الخروصي زعيم بني خروص القبيلة التي أنجبت العديد من الأئمة العُمانيين إبان القرون الوسطى[٢٥]، وهو من مواليد عام ١٨٨٣ في مدينة المشايف في ساحل الباطنة ثم انتقل إلى بلدة العوابي وهي دار قومه بني خروص الذين سمي الوادي باسمهم[٢٦]، وكذلك الشيخ عيسى بن صالح أكثر زعماء قبائل الهناوية نفوذاً وزعيم قبيلة الحرث وهي قبيلة عسكرية مثلت النواة الصلبة للقوة العسكرية في الثورة وقد سبق لها الفضل في قيام إمامة عزان بن قيس عام ١٨٦٨م[٢٧]، وقد عرف عن الشيخ عيسى بن صالح قوة الشخصية فقد وصفته مسز بيل (Bell) في كتابها الحرب العربية (The Arab War) بأنه رجل صارم الملامح ذو شخصية قوية[٢٨]، كما عرف عنه الطموح الشخصي فقد حاول مراراً الاستقلال الذاتي لقبيلته وهو لم يكن متزمتاً بالمسائل الإباضية كالسالمي مثلاً.

ومن قادة ثورة الإمامة لعام ١٩١٣م أيضاً الشيخ حمير بن ناصر النبهاني شيخ قبيلة بني ريام الغافرية وكان مقرها مدينة (تنوف) الواقعة على منحدرات الجبل الأخضر.

عقد قادة الثورة الأربعة اجتماعهم الأول في مسجد الشرع في مدينة تنوف وذلك في الشهر الخامس من عام ١٩١٣م وقد حضره عدد من زعماء القبائل وكبار رجال الدين وتدارسوا الضائقة الاقتصادية التي تمر بها عُمان وانعكاساتها السيئة على الأوضاع السياسية والاجتماعية كما ناقشوا في الاجتماع السبل الكفيلة بتخليص البلاد من النفوذ الأجنبي، ولقد كان المؤرخ العُماني السالمي من أبرز المتحدثين في الاجتماع والمحرضين على الثورة والعودة بعُمان إلى حكم الإمامة الإباضية ولكونه فقيهاً ومتضلعاً في العقيدة الإباضية دعا المجتمعين إلى إعادة النظر بسلطة حاكم عُمان في الساحل فيصل بن تركي كما اقترح على المجتمعين اختيار الرجل المناسب ليكون إماماً على عُمان وقد تقدم بترشيح الشيخ سالم بن راشد الخروصي لهذا الموقع، وقد أثنى المجتمعون على اقتراح السالمي، وتمت الموافقة عليه[٢٩]، وعلى ضوء ذلك اتخذ المجتمعون في نهاية الاجتماع قرارات هامة وحاسمة' من أهمها إعلان خلع السلطان فيصل بن تركي عن الحكم

لانحرافه عن جادة الشريعة واعتبار وجوده في الحكم غير شرعي وتعيين الشيخ سالم بن راشد الخروصي إماماً لعُمان كافة .

والواقع أن قادة الثورة ما إن انقضى اجتماعهم برؤساء القبائل ورجال الدين حتى أخذت تحركاتهم تزداد نشاطاً بين العُمانيين في أغلب المناطق محرضين على الثورة والتصدي بحزم لحكم السلطان ومؤيديه من الداخل أو لمؤازريه من الأجانب كما اتخذ قادة الثورة عدة إجراءات لتعزيز سلطة الثورة ووضوح شخصيتها منها اتخاذ مدينة نزوى عاصمة جديدة للإمامة ومقراً لقيادة الثورة . ومن المعروف أن هذه المدينة من كبرى مدن عُمان وقاعدة البلاد تقع في سفح الجبل تحف بها البساتين والأنهار ولها أسواق حسنة ومساجد عظيمة أهلها معروف عنهم الشجاعة والنجدة، وجميعهم إباضيو المذهب[٣٠] .

كما اتخذ قادة الثورة شعارا للثورة وهو العلم الأبيض الذي ظل شعاراً للإمامة كذلك[٣١] .

لكن الحدث الأكبر والذي جاهد قادة الثورة كثيراً في سبيل إنجازه هو إعلان غالبية القبائل العُمانية من الكتلتين الغافرية والهناوية تأييدها وولاءها للإمام الجديد . فلم تمض سوى بضعة شهور حتى تحقق ولاء الكتلتين للثورة وهذا يعد من أبرز مقومات النجاح للثورة الجديدة حيث لم يتحقق هذا الأمر في عُمان منذ القرن الثامن عشر وكان عدم تحققه من أهم أسباب الإخفاق الذي لحق بالثورات الإباضية ومنها ثورة الإمام عزان بن قيس (١٨٦٨ - ١٨٧١م) كما أسلفنا في مطلع هذا البحث[٣٢] .

وعلى ضوء ذلك انطلقت ثورة الإمامة هذه المرة بقوة واندفاع كبيرين وهي تهدف للإطاحة بحكم السلطان فيصل وإقامة حكم الإمامة يضم جميع عُمان الساحل والداخل بدلاً عنه[٣٣] .

أما سمات الثورة فيمكننا وفق ما اطلعنا عليه من مصادر تخص الموضوع أن نحدد أهم السمات الأساسية لثورة الإمامة عام ١٩١٣م في عُمان .

فقد اتضح لنا أنها لم تكن ثورة دينية صرفاً تهدف إلى تطبيق التعاليم الإباضية حرفياً وستؤيد الأحداث اللاحقة في البحث ذلك إذ بدت عليها بوادر الحركة القومية[٣٤] ، كما أنها لم تكن حركة انقلابية داخل الأسرة الحاكمة في عُمان كما حدث في إمامة

عزان بن قيس، فاختيار الثورة لرجل من غير أسرة البوسعيد الحاكمة أعطاها سمة أخرى وهي سمة الديموقراطية ولو بصفة نسبية أي حرية الانتخاب والاختيار بدون قيود نوعاً ما[٣٥]، كما اعتمدت التاريخ وتجاربه في صيرورتها فلم تغفل الماضي خاصة وإن أحد قادتها وهو السالمي من المؤرخين العُمانيين المبرزين فقد استفادت الثورة من التجارب السابقة للثورات الإباضية فأنجزت الاتفاق بين عيسى بن صالح زعيم قبائل الهناوية في عُمان وحمير بن ناصر زعيم قبائل الغافرية وقد ساعد ذلك الثورة كثيراً في تثبيت أقدامها والتفاف غالبية القبائل العُمانية حولها . . .

ثالثاً : إنطلاقة الثورة ومسيرتها والموقف البريطاني حيالها

ما إن أعلنت الثورة، حتى بدأ الثوار عملياتهم العسكرية وذلك بالزحف على المدن العُمانية بهدف إسقاطها الواحدة تلو الأخرى ثم التقدم صوب العاصمة مسقط للإطاحة بحكم السلطان فيصل، وقد استطاع الثوار في الشهر الثامن من عام ١٩١٣م السيطرة التامة على الممرات الواقعة في وادي سمائل الاستراتيجي[٣٦]، الأمر الذي أدى إلى تدهور مركز السلطان لأن وادي سمائل كان الممر الوحيد الذي يصل بين مسقط ومطرح والداخل، وعلى ضوء ذلك أصبحت العاصمة مسقط معرضة للتهديد المباشر من قبل الثورة .

لقد أثارت انطلاقة الثورة مخاوف الوكيل السياسي البريطاني في مسقط الماجور نوكس (Knox) فوجه تحذيره الشديد إلى قادة الثورة في حالة مهاجمتهم العاصمة مسقط حيث أعلمهم بأن الحكومة البريطانية لن تقف مكتوفة الأيدي حيال عمل كهذا[٣٧]، وقد رد عليه الإمام الخروصي محذراً إياه من التدخل في شئون الثورة أو الاعتداء على الثوار بقوله : "إن مصير المسلمين

يجب أن يكون بأيدي المسلمين أنفسهم وإنهم ماداموا قد اختاروا إمامهم فهو الذي يملك السلطتين المدنية والدينية"[٣٨] .

ثم أردف الإمام الخروصي موجهاً كلامه للوكيل البريطاني نوكس قائلاً : "انتم معشر هذه الدولة (بريطانيا) يجب عليكم أن تكفوا عن أسر المسلمين ويلزمكم ألا تعتدوا علينا ومن تعدى علينا فالله يعيننا عليه"، وقد امتعض نوكس لهذا الرد[٣٩] .

وفي الواقع فإن الموقف البريطاني من ثورة الإمامة في بداية الأمر كان موقف المراقب لكنه سرعان ما تغير عندما تهددت العاصمة مسقط فهرع الإنجليز لنجدة السلطان حيث سارعت حكومة الهند البريطانية إلى تلبية طلب السلطان في إرسال قوة عسكرية بقيادة العقيد سميث (Smith) تم إنزالها في مدينة مطرح ثم انتشرت بعد ذلك في المناطق الحيوية حماية للحكم في مسقط[٤٠]، وفي الشهر الحادي عشر من عام ١٩١٣م تمت مضاعفة هذه القوة لترابط في المناطق القريبة من المدينتين الساحليتين مطرح ومسقط[٤١] .

ومن الجدير بالذكر أن السلطان فيصل في الوقت الذي كانت فيه قوات الإمامة تضيق الخناق على عاصمته مسقط، كانت حالته الصحية متدهورة وسيئة للغاية . وقد فارق الحياة في الرابع من أكتوبر عام ١٩١٣م فخلفه على الحكم ابنه الأكبر تيمور وكان يومئذ في السابعة والعشرين من عمره .

ومن المفيد أن نشير إلى أن السلطان الجديد قد تلقى دراسته العالية في كلية (مايو) في أجمير بالهند (Mayo College in Ajmer)[٤٢] . وقد وصفه الإنجليز أمثال توماس بأنه شخص طيب وقدير وذكي[٤٣]، كما وصفه القنصل الأمريكي في مسقط بريت (Bret) بأنه يحمل أفكاراً أكثر تحرراً .

وعلى العموم، فقد دخل تيمور بن فيصل الحياة الرسمية وهو في السادسة عشرة من عمره عندما مثل أباه في احتفالات عيد التتويج للملك إدوارد عام ١٩٠٢م وعند عودته إلى مسقط استقبله أبوه بإطلاق ثلاث عشرة طلقة مدفع لتحيته بشكل رسمي الأمر الذي يوضح الرغبة في إبراز مكانته الاجتماعية والرسمية في السلطة كما كان لتيمور نشاط ملحوظ في حكومة والده حيث قاد العديد من الحملات العسكرية لمواجهة الاضطرابات في الداخل وقد شارك أيضاً في مواجهة ثورة الإمامة

بعد انبعاثها على يد سالم الخروصي عام ١٩١٣م .

لقد تولى السلطان الجديد الحكم وخزانة الدولة فارغة وسلطة الحكم مزعزعة فحاول بكل جهده أن يعمل على تحسين الأوضاع إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م وانشغال القوات البريطانية بها أثر على الدعم العسكري البريطاني له ، فاستمرت أوضاع البلاد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في التدهور نتيجة لاستمرار الصراع بين السلطان وقوات الإمامة .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد ازداد التأييد لثورة الإمامة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى وخاصة من القبائل العُمانية القاطنة على الساحل بحيث تمكنت الثورة من أن تضم إليها مدن بركا على ساحل الباطنة وقريات الواقعة على مسافة ٤٠ ميلاً إلى الجنوب من العاصمة مسقط ومطرح وصور وصحار مع بعض الموانئ الصغيرة على ساحل الباطنة ، عندها لم يكتف الإنجليز بالتحذير فقط بل وجهوا أول ضربة لقوات الثورة وذلك بواسطة الطرادين البريطانيين فوكس (Fox) ودارتموث (Dartmouth) اللذين تمكنا من إقصاء قوات الإمامة من بركا وقريات(١١) .

كما واجه السلطان تيمور من جانبه تعاظم الثورة واتساع رقعتها باتباع وسائل الحصار الاقتصادي على الداخل عن طريق زيادة الضرائب الجمركية على البضائع القادمة من داخلية عُمان لتصديرها من الموانئ الساحلية ، وكذلك على جميع الواردات المغادرة من الموانئ الساحلية في طريقها نحو الداخل حيث بلغت نسبة الزيادة ٢٥٪ كما عمل السلطان على تقييد وصول المواد الغذائية الأساسية إلى داخلية عُمان . إلا أن هذه الضغوط الاقتصادية لم تفت في عضد الثوار ، بل زادتهم إصراراً على موقفهم من بعث الإمامة وإسقاط حكم السلطان تيمور ، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في الشهر الثامن من عام ١٩١٤م تفاءل الثوار كثيراً بها وعقدوا الآمال عليها واعتقدوا بأن ظروف الحرب ستكون لصالح ثورتهم بعد أن ينشغل الإنجليز بها ويتعذر عليهم تقديم العون والمساندة للسلطان الأمر الذي أدى بثوار الإمامة إلى تصعيد عملياتهم العسكرية مستندين في ذلك على

عدة عوامل ستفرزها ظروف الحرب لصالحهم منها :

أ - الطابع الديني الذي طبع الثورة واعتمادها على مبدأ الجهاد الديني الذي نادى به الإمام سالم الخروصي بين قبائل عُمان وارتباط ذلك بالجهاد الديني الذي دعت إليه الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية، مع ما ينتج عن هذا الترابط من دعم وتأييد إسلامي للثورة[15] .

ب - المساعدات التي من المحتمل أن تحصل عليها ثورة الإمامة من قِبَل ألمانيا وتركيا بحكم وقوفها ضد الوجود البريطاني في المنطقة .

وبالفعل، فقد استطاع الألمان التأثير على الثورة العُمانية من خلال الأتراك، فقد أكد الوكيل البريطاني في مسقط كثرة تردد المبعوثين الأتراك من الأستانة والبصرة إلى داخلية عُمان فضلاً عن وصول عملاء ألمان من شرق أفريقيا ومن موظفي شركة الفانكهاوس (Wankhose) الألمانية الملاحية في البحرين إلى ميناء صور العُماني[16] ومن ثم إلى المقاطعة الشرقية حيث أجروا مقابلة مع الشيخ عيسى بن صالح أحد قادة الثورة البارزين ووزعوا الهبات الكثيرة على القبائل لاستمالتها إلى جانبهم، كما أوضحوا لهم - بهدف كسبهم - بأن الإنجليز يستبدون بالرعايا المسلمين بخلاف الألمان الذين يدافعون عن الإسلام والمسلمين وأنهم من أجل ذلك تحالفوا مع الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية[17] .

ومن الجدير بالذكر أن الدعاية الألمانية قد تسربت إلى عُمان عن طريق دار السلام وأفريقيا الشرقية الألمانية (تنجانيقا) وقد بلغت درجة من التأثير على الثوار حتى اعتقدوا بأن الألمان قد كسبوا الحرب وأن قواتهم تحرز النصر في كل مكان كما اعتقدوا بأن القيصر الألماني قد اعتنق الإسلام واستبدل باسمه اسم الحاج محمد غليوم[18] وقد حان الوقت لإلقاء السلطان وحلفائه الإنجليز في البحر حيث لم يعد للنفوذ البريطاني من وجود[19] .

وفي الواقع فإن الدعاية الألمانية قد نجحت في إلهاب الحماس لدى الثوار إلا أن هذا التأثير لم يكن العامل الحاسم في تأجيج الثورة وإشعال أوارها للدرجة التي تبالغ فيها بعض المصادر حيث ذكرت بأن الوكلاء الألمان هم الذين حركوا الثورة، خاصة وقد عرفنا العوامل والأسباب التي أدت إلى تصعيد الثورة واستمرارها من خلال ما تقدم ذكره

في البحث وعرفنا أن دور الألمان ودعايتهم كان محدوداً جداً . . . .

لقد صعدت الثورة من عملياتها العسكرية استناداً للعاملين الآنفين فضلاً عن عامل ثالث سبق ذكره وهو اعتقاد الثوار توقف التعزيزات البريطانية العسكرية لمسقط بسبب انشغال القوات المسلحة البريطانية بالعمليات الحربية خارج المنطقة وإن حاولت فهي لن تتمكن من العمل بالسرعة والشكل الذي كان متوافراً قبل الحرب لذلك اعتقدت قيادة الثورة بأن القوة البريطانية ستصبح في موقف حرج فهي لا تستطيع الدفاع عن مسقط ولا حتى عن نفسها وبناءً على هذه الاعتقادات التي هيمنت على تفكير قادة ثورة الإمامة مطلع الحرب العالمية الأولى انطلقت قوات الإمامة في الشهر الأول من عام ١٩١٥م بقيادة الإمام سالم الخروصي مستهدفة العاصمة مسقط والإطاحة بحكم السلطان تيمور، وقد بدأ تعاظم القوات من خلال أعدادها الهائلة التي بلغت الآلاف حيث ضمت أفراد القبائل من الكتلتين، الهناوية بقيادة الشيخ عيسى بن صالح، والغافرية، تحت قيادة الشيخ حمير بن ناصر وقد تقدمت القوات جميعاً حتى وصلت إلى ما يقارب ستة أميال عن العاصمة مسقط التي أصبح سقوطها وشيكاً[٤٠] .

كما شنت قوات الإمامة هجوماً مركزاً على الحامية البريطانية التي كانت تقوم بالدفاع عن المدينة مسقط، ولكن، بالرغم من أن مسقط لم تكن معززة إلا بقوات قليلة العدد بلغ قوامها ٧٠٠ جندي يرابطون وراء تحصينات قوية، إلا أن هذه القوات تمكنت من أن تدحر هجوم الثوار غير المنظم والذي كان يعوزه التكتيك العسكري، ففي المعركة التي نشبت بين الطرفين في رائعة النهار لم تستطع قوات الإمامة الوصول إلى قلعة مسقط وإنما تعرضت قواتها لمجزرة رهيبة اضطر الثوار بعدها إلى التراجع نحو المرتفعات الداخلية دون أن يفكروا في إعادة الكرة بسبب الخسائر الفادحة التي تكبدتها قوات الإمامة في هذه المعركة، فقد كانت هذه آخر محاولة للإمامة في الهجوم على العاصمة مسقط[٤١] .

وعلى إثر الهزيمة التي منيت بها قوات الإمامة، قاد السلطان تيمور قطعاته في الشهر السابع من عام ١٩١٥م صوب المناطق الساحلية لتخليصها من فلول الثوار، وقد نجح

السلطان في دحر قوات الإمامة بفضل التعزيزات التي وصلته من حكومة الهند البريطانية، حيث أرسلت له ست فرق من المدفعية الثقيلة(٥٢)، فضلاً عما ذكرناه من تمتع هذه القوات بالتنظيم والتدريب الجيدين .وقد أراد السلطان تيمور تعقب قوات الإمامة إلى الداخل ومطاردتها كي يتم القضاء عليها تماماً، إلا أن الوكيل البريطاني في مسقط منعه من ذلك ونصحه بالتوقف عند هذا الحد . . .

رابعًا: نهاية الثورة

سارعت بريطانيا لبذل قصارى جهودها في سبيل إيقاف الصراع القائم بين الإمامة والسلطان خوفاً من ألا تستطيع في المرة القادمة أن تمنع حكم السلطان تيمور من السقوط، إن حاولت قوات الإمامة إعادة الكرة وذلك بسبب انشغال الإنجليز بظروف الحرب فضلاً عن خشية بريطانيا من تأثير دعوة الإمام الخروصي إلى الجهاد على المناطق الإسلامية كالهند وجزيرة العرب وشمال أفريقيا مما سيخلق لها مصاعب بالغة، زائداً تعارض ذلك وما كان الإنجليز يفاوضون عليه الشريف حسين بن علي ملك الحجاز حول إعلان الجهاد المقدس ضد الدولة العثمانية(٥٣) .

وعلى هذا الأساس تقدم اللورد هاردنج (Lord Hardinge) نائب الملك في الهند لدى وصوله إلى مسقط عام ١٩١٥م ضمن جولته التي خصصها لزيارة موانئ الخليج العربي بتوصية للسلطان تيمور يدعوه فيها لعقد الصلح مع الثوار(٥٤)، كما طلب من الكولونيل بين (Benn) الوكيل السياسي البريطاني في مسقط أن يكون وسيطاً بين الطرفين، وقد أوضح الكولونيل بين لنائب الملك في الهند طبيعة الموقف بين الإمامة والسلطان والصعوبات البالغة التي تعترض الصلح بينهما، إلا أن اللورد هاردنج ألح عليه بضرورة التوصل إلى اتفاق ينهي النزاع بينهما، كما أقنع السلطان بذلك بعدما توضح لهاردنج أن ثوار الإمامة لا يزالون قابضين على زمام الموقف .

وعلى ضوء ذلك تم الاتصال لأول مرة بين الوكيل السياسي البريطاني في مسقط وزعماء ثورة الإمامة في الداخل،

وقد حاول الوكيل البريطاني لهذا الاتصال بأن قدم لزعماء الثورة الهدايا والهبات، إلا أن هذه المحاولة لم تجد القبول عندهم بسبب امتناعهم عن قبول الهدايا باعتبارها رشوة مخلة بالمبادئ .

وقد جاء رد زعماء الثورة للوكيل البريطاني سلبياً، مفسرين موافقة السلطان على إجراء التفاوض معهم بأنها علامة ضعف وكانوا يتوقعون انهيار حكمه . . .

والواقع، إن ثوار الإمامة بالرغم من أنهم أوقفوا عملياتهم العسكرية ضد السلطان بعد معركة مسقط، إلا أنهم استمروا في صمودهم حيث ظلت سيطرتهم على وادي سمائل الاستراتيجي والمدن العُمانية التي سبق أن اجتاحوها وخاصة مدن الداخل، ويمكننا تفسير ردهم السلبي للوكيل البريطاني بأنه يعود لسبب آخر غير الذي تقدم ذكره وهو عدم ثقتهم بصدق النوايا البريطانية في الوساطة إذ عرفوا بريطانيا وموقفها الدائم والثابت مع السلطان طيلة فترة الصراع، لذلك لم تلق دعوة الوكيل البريطاني للتفاوض تجاوباً منهم وخاصة أن الوكيل البريطاني أرفق مع دعوته للتفاوض شروطاً يجري على ضوئها هذا التفاوض وهي كما يلي :

١ – الاعتراف بشرعية حكم السلطان في عُمان .

٢ – عدم نقض المعاهدات التي عقدت بين بريطانيا وعُمان .

٣ – عدم المساس بمشروع إنشاء مستودع الأسلحة الذي يلغي تجارة السلاح في عُمان(**) .

وإبان فترة الاتصالات بين الوكيل البريطاني (بين) والسلطان تيمور من جانب وزعماء الثورة من الجانب الآخر، حاول كل طرف من أطراف الصراع انتهاز الفرصة لضرب الطرف الآخر وإجباره على التفاوض معه وفق الشروط التي يمليها .

فقد حاول السلطان تيمور من جانبه استمالة شيوخ السمائل لمساعدته في حالة هجومه على قلعة سمائل الاستراتيجية، كما حاول إقصاء فلول قوات الإمامة من خلال الهجوم الذي شنه في الشهر السابع عام ١٩١٥م على قبيلة (بني بطاش) الهناوية والتي لم تكن قد ألقت السلاح بعد، كما تمكنت. من الجانب الآخر، قوات الإمامة من الزحف على مدينة صور في الشهر العاشر من عام ١٩١٥م وحاولت خلق الاضطرابات وإثارة القلاقل فيها لزعزعة حكم السلطان إلا أن كلا المحاولتين لم

تقدم شيئاً لأي من الطرفين، وفي الواقع، فإن زعماء الثورة قد أدركوا في النهاية استحالة إلقاء السلطان تيمور وقواته في البحر فتدارسوا موقف الثورة المتصدع في الاجتماع الذي عقدوه فيما بينهم، فوجدوا من الحكمة أن يوافقوا على إجراء المفاوضات مع السلطان والتوصل معه إلى اتفاق[٥٦].

وعلى ضوء ذلك، بعث الشيخ عيسى بن صالح رسالة إلى الوكيل البريطاني (بين) تضمنت موافقة الثوار على التفاوض شريطة أن تدرس الحكومة البريطانية القضايا المختلف عليها مع السلطان على أساس العدل مادامت بريطانيا قد قبلت لنفسها التوسط والإشراف على المفاوضات بين الطرفين[٥٧].

وفي منتصف الشهر الحادي عشر من عام ١٩١٥م تم عقد أول اجتماع بين الشيخ عيسى بن صالح ممثل قيادة الثورة للإمامة والوكيل السياسي البريطاني (بين) نيابة عن السلطان تيمور، وذلك في مدينة (السيب) التي تبعد عن العاصمة مسقط بحوالي ٢٥ ميلاً[٥٨]، وقد تم في هذا الاجتماع طرح شروط الثورة للتفاوض والتي على أساسها يتم الصلح مع السلطان وهي كما يلي:

١ - أن تكون الشريعة الإسلامية أساساً للحكم في عُمان سواء في الساحل أو الداخل وخاصة فيما يتعلق بالقضايا الجنائية والمدنية، وأن تكون العدالة أساس التعامل مع الجميع دون تفرقة أو تمييز.

٢ - إلغاء القيود المفروضة على تجارة السلاح.

٣ - إلغاء الضرائب المفروضة على واردات وصادرات المقاطعات الداخلية في عُمان.

٤ - تحريم استيراد الخمور والتبغ.

٥ - حل الجيش الجديد والمتكون من العناصر الدخيلة مع إطلاق سراح المعتقلين، وتسليم جميع اللاجئين لدى السلطان من المجرمين وتطبيق العقوبات عليهم وفق قواعد الشرع[٥٩].

ثم طرح ممثل الإمامة رأي الثورة إذا ما حصلت موافقة السلطان على هذه الشروط فإن زعماء الثورة على استعداد للاعتراف به حاكماً على عُمان شريطة أن يكون الإمام مسئولاً عن السلطة التشريعية وفق أحكام الشريعة وأن يتولى

بنفسه ممارستها في مسقط أو عن طريق ممثل له . . .

ثم قام الشيخ عيسى ممثل الإمامة في هذا الاجتماع مع الوكيل البريطاني بإثارة جملة من المشاكل التي تعاني منها عُمان إضافة إلى ما تقدم ذكره وكانت هذه المشاكل في غالبيتها ذات صبغة اقتصادية مثل مسألة انخفاض قيمة الريال العُماني وآثاره السلبية على السكان، كذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية والأقمشة ولم يفت ممثل الإمامة أن يوجه النقد مباشرة للوكيل البريطاني بسبب سيطرة بريطانيا على البحار والتي يجب أن تبقى حرة للجميع والرسوم الباهظة التي تفرضها على السفن العاملة في البحر والتي تلزم بالتوجه مباشرة إلى ميناء مسقط أولاً لدفع هذه الرسوم .

ورد الوكيل البريطاني (بين) على شروط الإمامة باعتباره ممثلاً عن السلطان فوصف شروطهم بأنها تعجيزية وقد أجاب على بعضها في حين رفض البعض الآخر رفضاً قاطعاً، فوعد مثلاً بإمكانية النظر في إعفاء البضائع من الضرائب بينما تمسك بعدم تسليم بعض زعماء القبائل الذين تعاونوا مع السلطان خلال الاشتباكات التي جرت بين الجانبين باعتبارهم أدوا واجبهم في الحرب لصالح الحكم في عُمان وأنهم ليسوا مجرمين . كما أعلن ممثل السلطان عدم مسئولية السلطان عن استيراد الخمور والتبغ للبلاد بذريعة أن رعاياه لا يقومون بذلك وإنما يفعله رعايا الدول الأجنبية إذ ليس له سلطات قضائية عليهم، وقد أكد ممثل السلطان خلال هذا الاجتماع طلب السلطان تيمور من قادة الثورة تحقيق أمرين هامين هما :

أ) خضوع الإمام التام له، وعندما يتأكد له ذلك، ينظر بشأن تعيين ممثل عنه في داخلية عُمان .

ب) الانسحاب الفوري غير المشروط من وادي سمائل لأهمية موقعه الاستراتيجي والتجاري للعاصمة مسقط[٦١] .

وهكذا، بدا من الاجتماع الأول، شدة التعارض بين مطالب قادة الثورة للإمامة والسلطان، إذ كان السلطان تيمور يتطلع إلى استعادة نفوذه في الداخل بينما كان ثوار الإمامة يسعون إلى الإبقاء على مراكزهم التي احتلوها .

وعندما لم يتوصل الطرفان إلى صيغة للاتفاق بينهما، انتهى اجتماع السيب الأول بالفشل، فانقطعت

المفاوضات التي لم تتخذ خطوات لاستئنافها حتى الشهر الثالث من عام ١٩١٨م[٦١] .

وعلى ضوء ذلك، أصبحت عُمان منقسمة إلى نظامين للحكم أحدهما في الداخل تحت سلطة الإمامة وثانيهما في الساحل تحت حكم السلطان تيمور ولم يحدث ما يغير هذا الأمر طوال سني الحرب العالمية الأولى بالرغم من محاولة كل طرف اغتنام أية فرصة تدعم نظامه وتزعزع النظام الآخر .

ومن هذه المحاولات عمل قادة الإمامة على تكوين جبهة متماسكة في الداخل ويعتقد أن مما زاد تماسك هذه الجبهة هو احتمال وصول مساعدات عثمانية إليهم عام ١٩١٦م حيث سبق وأن خاطب الإمام سالم الخروصي كلاً من الإمام يحيى في اليمن وسعيد باشا قائد القوات العثمانية هناك طالباً منهم تعزيزات عسكرية، كما انتهزت الإمامة حالة الاضطرابات التي نشبت في المدن العُمانية ضد السلطان في الشهر الرابع من عام ١٩١٧م فأرسلت (حميد بن سالم) أحد الشخصيات البارزة في داخلية عُمان والمقربة من الإمام إلى ميناء صور بهدف تأجيج الاضطرابات فيها ضد حكم السلطان تيمور، لكن قوات السلطان تمكنت من إخمادها وقتل حميد بن سالم .

وبالرغم من كل ذلك، فقد تمثلت سيطرة الإمامة بشكل واضح على معظم المقاطعات الداخلية في عُمان ولاسيما بعد أن تمكنت قواتها من اجتياح مدينة الرستاق والسيطرة عليها وهي من المدن العُمانية الرئيسية التي تطل على ساحل الباطنة، وقد عين الإمام الخروصي أخاه ناصر بن راشد الخروصي والياً عليها .

بينما بقي حكم السلطان تيمور في مسقط يعاني من التدهور المالي الذي بلغ درجة الإفلاس، فضلاً عن انهماك الإنجليز بالحرب وعدم تمكنهم من مد يد العون والمساعدة له، ومع ذلك، فقد اتخذت قوات السلطان تساندها القوات البريطانية المرابطة في عُمان جميع الاحتياطات اللازمة على امتداد الساحل العُماني تحسباً لأية محاولة من جانب الإمامة في التقدم صوب الساحل[٦٢] .

وبذلك عاشت عُمان فترة عدم استقرار، بسبب مواصلة ثوار الإمامة تعزيز سيطرتهم على مدن الداخل من جانب، وتطلع السلطان تيمور إلى انتهاء الحرب العالمية الأولى كي يحصل على

المزيد من الدعم والإسناد البريطاني الذي يتمكن به من سحق الثورة واستعادة سيطرته على الداخل من الجانب الآخر . . .

وما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وأسفرت عن تدعيم السيطرة البريطانية بالخليج العربي بصورة تفوق كثيراً ما كانت عليه في السابق الأمر الذي ساعد بريطانيا على فرض التسويات العديدة في المنطقة ومن بينها اتفاقية السيب لعام ١٩٢٠م بين سلطان مسقط وزعماء الإمامة في الداخل حيث أرغمت بريطانيا الطرفين على الجلوس إلى طاولة المفاوضات التي تمخضت عن الاتفاقية وقد وقعها عن جانب الإمامة الشيخ عيسى بن صالح ومجموعة من شيوخ القبائل وعن جانب السلطان تيمور وينجت (Wingte) القنصل البريطاني في مسقط يومذاك وذلك في الخامس والعشرين من الشهر التاسع لعام ١٩٢٠م[٦٣] .

لقد قسمت اتفاقية السيب والتي كانت نتيجة لثورة الإمامة عام ١٩١٣م عُمان عملياً إلى نظامين للحكم أحدهما في الساحل يقوده السلطان وآخر في الداخل بزعامة الإمام، وبالرغم من أن عُمان في تاريخها الحديث قد تعرضت لمثل هذا التقسيم عندما أصبح فيها الحكم ثنائياً كما مر بنا في الفقرة الأولى من هذا البحث، إلا أن الأمر يختلف هذه المرة لكون عُمان قد قسمت إلى نظامين للحكم بشكل رسمي وفق اتفاقية موثقة وموقعة من طرفي النزاع وبإشراف بريطانيا إلى درجة أن انعكس هذا التقسيم على اسم البلاد فأصبحت تسمى بـ (سلطنة مسقط وإمامة عُمان)، ولم يبدل هذا الاسم لعُمان إلا في عهد السلطان سعيد بن تيمور عندما قضت قواته وبمساندة من القوات البريطانية على حكم الإمامة في الداخل بشكل نهائي وذلك في عام ١٩٥٩م لتخضع عُمان بأجمعها لحكم السلطان فقط وليبدل اسم البلاد رسمياً إلى (سلطنة عُمان) والذي لازالت تعرف به عُمان حتى يومنا هذا[٦٤] .

الخلاصة والاستنتاجات

مما تقدم توصلنا إلى ما يلي :

١ - حاربت بريطانيا ثورة الإمامة التي اندلعت عام ١٩١٣م لكونها تعارض الوجود الأجنبي في المنطقة بشكل عام والوجود البريطاني بشكل خاص .

٢ - وقفت بريطانيا إلى جانب حكم السلطان في الساحل للعلاقات الإيجابية التي تربطها به فضلاً عن وقوع مركز حكمه (مسقط) على الطريق المؤدي إلى أهم مستعمراتها - الهند - .

٣ - لم تقض بريطانيا على ثورة الإمامة نهائياً بالرغم من قدرتها على ذلك وقد سبق أن هددهم قنصلها في مسقط هاورث (Haworth) عندما بعث لقادة الثورة رسالة شديدة اللهجة عام ١٩١٩م جاء فيها "لو أردنا ضرركم لكان من السهل علينا أن نرسل إليكم من طائراتنا طائرة واحدة لا غير تحطم مدنكم وتخرب حصونكم" .

لكن بريطانيا لم تفعل ذلك لكي يبقى حكم السلطان مهدداً من قبل الإمامة وفي حاجة دائمة لدعم ومساندة بريطانيا الأمر الذي يحفظ مصالحها في عُمان .

٤ - أجبرت بريطانيا طرفي النزاع (السلطان وقادة الإمامة) على توقيع اتفاقية السيب لكي تكرس تجزئة البلاد وفق سياستها المعروفة في العالم (فرِّق تسد) .

د. فاضل محمد الحسيني

جامعة ناصر / ليبيا

الهوامش

١ – قاسم، جمال زكريا، الأصول التاريخية لقضية عُمان، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني عشر، السنة ٦٤ – ١٩٦٥م، القاهرة، ص ١٦٧ .

٢ – الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦١، ص ١١٥ .

٣ – الموهوبي، عامر علي عمير، عملن قبل وبعد الإسلام، ١٩٨٠، عُمان، ص ٣٧ – ٣٨ ؛ السيابي، سالم بن حمود، الحقيقة والمجاز في تاريخ الإباضية باليمن والحجاز، عُمان، ١٩٨٠، ص ١١ .

٤ – السيابي، المرجع السابق، ص ٣٥ .

٥ – الباروني، سليمان، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق محمد علي الصليبي، الجزء الثاني، عُمان، ١٩٨٧، ص ٨٣ .

٦ – سلطان، سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان، مذكرات أميرة عربية، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، عُمان، بدون تاريخ، ص ١٤ .

٧ – الأزكوي، سرحان بن سعيد، تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، الطبعة الثانية، عُمان، ١٩٨٦، ص ٩٦ .

٨ – Lockhart, Laurence, Nadirshah, Arihcal study Baised-mainly upon contemporary sources, London, 1938, p. 182.

٩ – الأزكوي، المصدر السابق، ص ١٥٤ .

١٠ – Wellsted, J.R., Travels in Arabia, Vol. I, London, 1840, p. 39.

١١ – عبدواني، صادق حسن، الدولة العُمانية نشأتها وازدهارها (حصاد) ندوة الدراسات العُمانية، ١٩٨٠، عُمان، المجلد الثاني، ص ٧٥ .

١٢ – Arabian Boundaries, primary Documents, 1853 - 1957, Richard Schofield and Cerald Blake, volume 19, Sultanate of Muscat and Oman, London, 1988, p. 43.

١٣ – قلعجي، قدري، الخليج العربي بيروت، بدون تاريخ، ص ٨٩٨ .

١٤ – كيلي، جون ب.، بريطانيا والخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، الجزء الأول، عُمان، ١٩٦٥، ص ٢٥ .

١٥ – سعيد، أمين، ثورات العرب في القرن العشرين، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٤٥ .

١٦ – Palgrave, William, Narrative of Year's Journey Through Central and Eastern Arabia, Vol. I, London, 1865, p. 255.

١٧ – Selections From the Records of the Bombay Government, New Series, No. XXIV, Bombay, 1856, p. 50.

١٨ – لمزيد من المعلومات عن حكم الإمام عزان، أنظر كتاب : أحمد عبيدلي، الإمام عزان بن قيس، ١٨٦٨ – ١٨٧١، بيروت، ١٩٨٤م .

١٩ – السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٢٨، ص ص ٢٦٦ – ٢٧٢ .

٢٠ – Arabian Boundaries, Primary Documents, 1853 - 1957, OP-ct, p. 52.

٢١ – المشهداني، خليل إبراهيم صالح، التطورات السياسية في عُمان وعلاقاتها الخارجية، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد، ١٩٨٦، ص ٥٥ .

٢٢ – لاندن، روبرت جيران، عُمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبدالله، الطبعة الثالثة، عُمان، ١٩٨٣، ص ٤٥٧ .

٢٣ – المشهداني، المرجع السابق، ص ص ٤٧ – ٥٦ .

٢٤ – اعتمد البحث على هذا المؤلف والذي يعد في طليعة المصادر العُمانية المحلية .

٢٥ – لاندن، المرجع السابق، ص ٤٥٨ .

٢٦ – السيابي، سالم بن حمود، إسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان، بيروت، ١٩٦٥، ص ١١١ – ١١٤ .

٢٧ – F.O., 371, 6252, Muscat, Dated 1921, No. e 1949/95/9.

٢٨ – فيليبس، وندل، تاريخ عُمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، ١٩٨١، عُمان، ص ١٦٧ .

٢٩ – المشهداني، المرجع السابق، ص ٥٨ – ٥٩ .

٣٠ – ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الأول، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٢٨، ص ١٧٢ .

٣١ – المشهداني، المرجع السابق، ص ٥٤ .

٣٢ – العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٤١ .

٣٣ – لاندن، المرجع السابق، ص ٤٦٠ .

٣٤ – قاسم، الأصول التاريخية . . . المرجع السابق، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

٣٥ – العقاد، المرجع السابق، ص ٢٤١ .

I.O., L/p s/18-B 398, The Rebellion Against the Sultan of Muscat, – ٣٦
dated, May, 1913.

F.O., 371/1695, Muscat, 1913, Warning to Shaikhs of Oman. – ٣٧

٣٨ – الداود، محمود علي، التطور السياسي الحديث لقضية عُمان، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٤٢ .

٣٩ – قاسم، جمال زكريا، الخليج العربي، دراسـة لتـاريخ الإمـارات العربيـة، ١٩١٤ – ١٩٤٥، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٨٨ – ٣٨٩ .

I.O., Political Report to Political Resident, Mar. 9, 1913. – ٤٠

٤١ – لاندن، المرجع السابق، ص ٤٦١ .

Peterson, J.E. Oman in the Twentieth Century, London 1978, P. 49. – ٤٢

Thomas, Bertram. Arab Rule Under the Albu-Said Dynasty of Oman, 1741 - – ٤٣
1937, London, 1938, P. 25.

٤٤ – لاندن، المرجع السابق، ص ٤٦٢ .

٤٥ – قاسم، جمال زكريـا، المؤثـرات السياسية للحـرب العالميـة الأولـى علـى إمـارات الخليـج العربي، المجلة التاريخية المصرية، المجلد السادس عشر، القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٦٩ .

٤٦ – قاسم، جمال زكريا، بريطانيا والخليج العربي في الحرب العالمية الأولى، مجلـة دراسـات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣ السنة الأولى، الكويت، ١٩٧٥، ص ٩٤ .

F.O., 371/2416 Muscat, 1915, Colonel Benn, Political Agent to Knox Political – ٤٧
Resident, 25th, January, 1915.

Thomas, Op. Cit. P. 24. – ٤٨

٤٩ – فيليبس، المرجع السابق، ص ١٦٨ .

F.O., 371/2416, Political Agent, Muscat, To the Secretary of the Government – ٥٠
of India. dated 7th, January, 1915.

F.O., 371/6248, confidential No. 2052, Dated the 14th October, 1920, from – ٥١
Wingate, Muscat to the deputy resident, of events from colonel Benn's first meeting with the Oman chief's in 1915, Till major Haworth's meeting with the same in Sept. 1919.

F.O., 371/2416, Muscat, 6th companies of the 95th Russel's Infantry, Secretary – ٥٢
to the govt. of India to the chief of the general staff, Delhi, 16th, Jan. 1915.

٥٣ – قاسم، الخليج العربي، ١٩١٤ – ١٩٤٥ . . . المرجع السابق، ص ٣٩٧ .

٥٤ – الداود، محمود علي، أحاديث عن الخليج العربي، الطبعة الثانية، بغداد، بدون تاريخ، ص ٤٢ .

٥٥ – F.O., 371, Muscat, 2416, B-398, The rebellion against Sultan of Muscat, 1913 - 1919.

٥٦ – لاندن، المرجع السابق، ص ٤٦٣ .

٥٧ – I.O. Political report to pol, res, Mars, 1917.

٥٨ – F.O., 371/2416, Muscat, no. 25/164/688, dated 15, Sept.. 1915, Sultan's Negotiations with Imam.

٥٩ – F.O., 371/2416, Translation of a petition presented by Shaikh Isa Bin Saleh, reperative of the Imam Salim Bin Rashid, Alkharousi, to the Political Agent, Muscat, at Sib, 15th, Sept., 1915.

٦٠ – A.B., Primary Documents, 1853 - 1957, Op. Cit. p. 52.

٦١ – I.O., Memorandum, administration, Muscat, 1908 - 1928, [L/P and S/18/B400], August, 1928.

٦٢ – Peterson, Op. Cit. P. 75.

٦٣ – الحسيني، فاضل محمد، الدور البريطاني في عقد اتفاقية السيب عام ١٩٢٠ بين سلطان مسقط والإمام في داخلية عُمان، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد التاسع عشر، ١٩٩٦، الدوحة، ص ١٧٨ .

٦٤ – الموافي، عبد الحميد، الوحدة الوطنية في عهد السلطان قابوس بن سعيد، أحد بحوث ندوة عُمان في التاريخ، مسقط ١٩٩٤، ص ١٠ – ١١ .

ملاحظة :

الرموز التي وردت في الهوامش تعني ما يلي :

١ – وثائق وزارة الخارجية البريطانية F.O. Foreign Office record

٢ – وثائق وزارة الهند البريطانية I.O. India Office records

٣ – وثائق الحدود العربية A.B. Arabian Boundaries